سورة البقرة

[التذكير بنعم الله على بني إسرائيل][(١)]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۢ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٠-٤٤]. [١]

[شرح١] يُذَكِّرُ سبحانه في هذه الآيات بما فعله مع بني إسرائيل من النعم العظيمة، والخير الكثير، والنصر على العدو، ويذكِّر أحفادهم الذين كانوا في المدينة ـ وهم يهود المدينة ـ بما أنعم به على أسلافهم، =

---

(١) هذه العناوين التي بين حاصرتين من وضع المعتني بالكتاب.

....

= لعلهم ينتبهون، ولعلهم يشكرون، ولعلهم يتوبون من جحدهم وكفرهم وضلالهم، ويُقرُّون بنبوة محمد ﷺ وينقادون لما جاء به من الهدى، وهم يعلمون ذلك، وهو موجود في كتابهم «التوراة» ـ العهد القديم ـ فيعدد عليهم النعم العظيمة.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وإسرائيل هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وإسرائيل معناه: عبد الله، فيذكِّرهم بهذا العبد الصالح وبأولاده، وأن الواجب عليهم أن يتبعوا ما كان عليه من الهدى.

ومن الهدى: الإقرار بالحق، والإقرار بالرسل، فكلما بُعث رسول عليهم أن يتبعوه، وأن ينقادوا لما جاء به، وخاتم الرسل هو محمد عليه الصلاة والسلام، كما هي مبينة صفاته عندهم في «العهد القديم»، وأن عليهم أن يؤمنوا به ويصدقوه، ولكن القوم استمروا في الجهل والضلال، والعياذ بالله.

والتذكير بالنعم دعوة إلى شكرها، وإلى السير على منهاجها، وعدم الجحد والكفر بها، ولكن القوم أكثرهم في ضلال وعماء، وقسوة في قلوبهم وإعراض عن الحق، وإيثار للدنيا على الآخرة، =

....

= والعياذ بالله.

ويبين سبحانه وتعالى في هذه الآيات، النعم الكثيرة التي أسداها إلى أسلافهم؛ لينتبهوا وليذكروا هذا الخير، وليبادروا بالشكر لله سبحانه وتعالى.

والمقصود من ذلك أيضاً تذكيرنا نحن ـ أمةَ محمد ﷺ ـ، وأن علينا أن نحذر ما فعله اليهود، وأن لا نكون مثلهم في إنكار النعم وعدم شكرها، وعدم الخضوع للمنعم سبحانه وتعالى بطاعة أمره وترك نهيه. وقد قال بعض السلف في هذا: مضى القوم ولم يُعْنَ به سواكم؛ يعني: لم يُعْنَ به إلا أنتم، لتستقيموا ولتشكروا الله على نعمه، ولتحذروا غضبه سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ يعني: بالقرآن وبمحمدٍ عليه الصلاة والسلام، وما ذاك إلا أن اليهود هم الذين في المدينة، وهم الذين يسمعون دعوةَ محمد مباشرةً،وقبل مَن كان في مصر أو الشام أو اليمن أو غير ذلك، فإذا كفروا به وأنكروا ما جاء به صاروا بهذا أولَ من كفر به من هـذه الحيثية، وإلا فقد كفر به قبلهم أهل مكة، =

....

= ولكن المقصود هنا بنو إسرائيل.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وفي هذا أيضاً توبيخ لهم على أعمالهم القبيحة التي جاؤوا بها، والتي منها: أمْرِهِم الناسَ بالبر ونسيانهم أنفسهم، فهم موبَّخون لنسيانهم أنفسهم لا على أمرهم بالبر، فأمرهم بالبر مطلوب، والعاصي له أن يأمر وينهى، بل عليه أن يأمر وينهى، ولكن عيبُه والذي يؤخذ عليه أن يأمر ولا يفعل، وأن ينهى ويفعل.

فالمطلوب من كل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن كان عنده معاص، فلو لم يأمر إلا من كان كاملاً لتعطل هذا الواجب العظيم، ولكن على الآمر أو الناهي أن يتقي الله، ولا يتشبه باليهود الذين يأمرون بالبر وينسون أنفسهم، قال بعض السلف في هذا: إنهم كانوا يأمرون أصدقاءهم وأولياءهم بمتابعة محمد ﷺ، فيقولون لهم تابعوا: محمداً، ويبينون لهم أوصافه، ويرشدونهم إليه، وينصحونهم، وهم مع ذلك لا يتَّبعون محمداً عليه الصلاة والسلام. وقال بعضهم: ذلك أنهم يأمرون عامَّتهم =

....

= من أهل الكتاب باتِّباع التوراة والتمسك بها، وهم أنفسهم يخالفونها ويحيدون عنها ويجحدون كثيراً منها بأهوائهم.

وفي كلّ حال هم ملومون على كفرهم، وعصيانهم ما أمروا به غيرهم، سواء كان أمرهم لهم باتِّباع محمد أو باتِّباع التوراة، فهم ملومون على كل حال.

والمقصود من هذا كله أن تتنبَّه هذه الأمة، وألا تكون مثل أولئك اليهود الضالين والمغضوب عليهم، الذين يعرفون الحق ويعلمونه في قرارة قلوبهم، ولكن يحملهم الحسد والبغي وإيثار العاجلة على ترك الحق، نسأل الله السلامة.

[بعض ما وقع لبني إسرائيل من العقوبات]

۞ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩]. [٢]

[شرح٢] في هذه الآيات ـ كما التي قبلها ـ عِظة وذكرى وبيان لما وقع لبني إسرائيل من العقوبات، وما ساق الله لهم من النِّعم، وأنه سبحانه ابتلاهم بالنعم الكثيرة، وابتلاهم بالمخالفة لكثيرٍ من أوامره، وبسبب ما فعلوه من قتلهم الأنبياء، والاعتداء عليهم، فمن أجل ذلك فرض الله عليهم الذِّلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله ـ نعوذ بالله ـ لأن الله ساق لهم نعماً كثيرة وأرزاقاً متنوعة، وأمرهم بأوامر ونهاهم عن نواهٍ، ولكنهم كثيراً ما يرتكبون النواهي ويعصون الأوامر. =

....

= قيل لهم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ فدخلوا يزحفون على أستاهِهم، وقالوا: حنطة في شعيرة، وغيَّروا وبدَّلوا. وقد جعل الله طاعتهم حِطَّةً لذنوبهم، ولكنهم لم يمتثلوا، وإنما غيَّروا وبدَّلوا، فصار ذلك من أسباب عذابهم ونَكالهم.

والله ﷻ يغفر للمحسنين ويزيدهم من فضله، فإذا امتثل العبد أمره وابتعد عن نهيه، غفر الله له سبحانه وتعالى وزاده من فضله ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

ولكن إذا أبى العبد إلا العصيان والتباعد عن أمره وارتكاب نهيه، فإنه بهذا متعرِّضٌ لغضب الله وعقابه كما تَعرَّضت اليهود، فصاروا إلى ما صاروا إليه من غضب الله ونكاله، وقسوة قلوبهم وعصيانهم للرسل، واستدبارهم عن الحق إلى يومنا هذا.

ولقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ فاستكبروا عن طاعته واستمروا في عصيانه وعدم تصديقه ﷺ، كما فعلوا بموسى وهارون عليهما السلام، وكما فعلوا بعيسى عليه السلام ـ كذبوه ورموه بالعظائم وقالوا: إنه ولد بغي ـ فجرائمهم كثيرة وشرُّهم متلوِّن، نعوذ بالله من هذا. =

....

= والسر في ذلك استكبارُهم عن الحق وإيثارهم العاجلة وعدم شكرهم للنعم؛ لذا فيجب على كل من له أدنى بصيرة أن يتنبَّه لهذا الأمر، وأن يحذر من التشبه بأولئك الأعداء، فالله قصَّ علينا قَصَصَهم لنحذر ولنأخذ العبرة، وأن من ارتكب محارم الله، وتباعد عن أمره سبحانه وتعالى، استحق العقوبة واستحق الغضب ـ وإن كان مَن كان ـ فقد فضَّلهم الله على العالمين في زمانهم، وأعطاهم خيراً كثيراً، وأرسل لهم الرسل الكثيرة، ومع ذلك لما عصوا واستكبروا أصابهم ما أصابهم من غضب الله وعقابه، وحلَّ بهم ما حل من أنواع العقوبات حتى مُسخ بعضهم قردةً وبعضهم خنازير ـ نعوذ بالله ـ بسبب عصيانهم وكفرهم بالله واستكبارهم عن الحق. فلَنا ـ معشرَ أمة محمد ﷺ ـ في هذا عظة وذكرى حتى نحذر معاصي الله، ونقف عند حدوده، وحتى نتباعد عن مناهيه، ونسارع إلى أوامر الله سبحانه وتعالى.

ومن تأمَّل قصة بني إسرائيل في كل مكان رأى فيها العِظة، ففي سورة البقرة وفي سورة الأعراف وغيرهما، يُرى منهم من =

....

= العصيان والاستكبار والمخالفة للأنبياء ما يدل على مرض القلوب وقسوتها وكِبْرِها وحسدها وعدم مُبالاتها بأمر الله، يتوبون ثم ينقضون، ويعملون الصالحات ثم يعودون للسيئات، والعياذ بالله.

فالمقصود من هذا كله أن يَنتَبِهَ العاقل، وألا يكون مثل هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا العقاب من الله، وأن يَعلَم أن الله سبحانه وتعالى يبتلي بالنعم والنقم، ويبتلي بالسراء والضراء.

فالواجب أن تُقابَل السَّراءُ بشكر الله والقيام بحقِّه، وأن تُقابَلَ الضرّاءُ بالصبر والاحتساب حتى يفرِّج الله، مع تعاطي الأسباب التي شرعها سبحانه لعلاج ما يقع من الضرّاء، فعلاج الذنوب بالتوبة النصوح، وعلاج النِّعم التي يسَّرها جل وعلا بشكره والقيام بحقِّه والاستعانةِ بها على طاعته سبحانه وتعالى، وعلاجُ الأمراض وغير ذلك من الأشياء بالأسباب التي شرعها الله مع سؤاله العافية، والشفاء إلى غير ذلك، فما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء، وأعظم الداء الكفر بالله ثم سائر الذنوب، والله تعالى جعل لها دواءً وهو التوبة، فمن تاب تاب الله عليه، فنسأل الله العافية =

....

= والتوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله*.

* س: ما حالات التشبُّه باليهود والنَّصارى؟

ج: تتنوع، فتارة يكون التشبه بهم في العقيدة وتارة يكون فيما دون ذلك، فقد يُتَشَبَّهُ بهم في العقيدة ـ نعوذ بالله ـ في تكذيب الرسل، كتكذيب عيسى أو محمد عليهما الصلاة والسلام، فمن فعل ذلك صار مثلهم في الكفر بالله، وقد يُتَشبَّه بهم فيما دون العقيدة كارتكاب المعاصي، فمن عصى الله وهو يعلم فقد تشبه باليهود؛ لأنهم عصوا الله على علم فاستحقوا الغضب، فكل من عصى الله على علم فله شبه بهم في استحقاقه خَصلةً من غضب الله.

واليهود ليس لهم خاصية بهذا، فالمقصود أي تشبه بكلِّ أنواع الكفار، فمَنْ تَشَبَّهَ بما اخْتصَّ به النصارى في دينهم، وصار معروفاً من دينهم، أو في أزيائهم الخاصة، فقد أصبح يَقتدي بهم، نسأل الله العافية، وفي ذلك وعيد شديد قال عليه الصلاة والسلام: «من تَشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1]، فهو وعيد شديد يجب الحذر منه.

س: ما الحدُّ الفاصل للتشبه بالكفار في اللباس وغير ذلك، وخصوصاً =

(١) أخرجه أبو داود: اللباس (٤٠٣١).

....

= أن بعض البلاد التي تسمى بالإسلام لها لباس - وبكل أسف - بينه وبين لباس اليهود والنصارى وغيرهم شبه؟

ج: إذا انتشر الشيء بين المسلمين وغيرهم فلا يكون فيه شبه بالكفار، وإنما التشبه في شيء من أصل دينهم أو يغلب عليهم دون غيرهم، أما إذا انتشر بين المسلمين مثل: الكنادر، وركوب السيارات، وركوب الطائرات، فهو مشترك، ليس فيه تشبه.

وهذا بخلاف الشيء الذي يكون في زيِّهم أو عاداتهم في بلادهم أو فيما بينهم، فينبغي أن يُتحرَّز منه، مثل: النار للنصارى، ومثل عادة النصارى واليهود في مذياعهم وفي أغانيهم التي يمتازون بها أو غلبت عليهم، فلا يتشبه المسلم بها، وأما ما انتشر بين العالم وصار للعالم كله فهو مشترك فلا يكون هذا خاصاً بالكفار، وليس فيه تشبه بأعداء الله.

س: هل لبس البنطال من التشبه بهم؟

ج: كَثُرَ البنطال الآن بين المسلمين والكفار وانتشر، لكن تركه أولى؛ لأن فِعْلَه يغلب على الكفرة، فأن يُترك ويُتحاشى أحوط، وإن كان قد انتشر بين المسلمين ولبسه المسلمون وغيرهم، ورأوا فيه خفة لهم في أعمالهم وفي غير ذلك، ورأوا أنه أسهل عليهم من اللبس المعتاد. فهذا - فيما يظهر - يخف فيه التشبه؛ لأنه الآن صار من زي أهل الإسلام، ورأوا فيه مصلحة، =

....

= وقد يقال في هذا: إنه لا يكون تشبه بمحرَّم، ولكن ينبغي أن يُتورع عنه.

ومن هذا الباب لُبس النبي ﷺ الحِبَرَة وهي من برود اليمن، وكان اليمن أكثره كافر، ولُبس الـجُبَّة الشامية في الشام شيء مُشترك، فالذي فَشا بين العرب لا يكون فيه تشبه، فالجبة الشامية التي لبسها يوم تبوك، فلما ضاقت عليه أخرج يديه من أسفلها وغسلهما، وبرود اليمن كانت تُباع في المدينة فيشترونها ويلبسونها لأنها شيء معتاد، وكالأُزُر المخططة أصبحوا ينسجونها في اليمن.

س: إذا لبس الشاب المسلم البنطال لم يكن فارق بينه وبين اليهودي في لباسه، فمثلاً إذا دخل أحدنا محلاً، لا يدري مَن المسلم، فما الرأي؟

ج: هذا شيء آخر، فينبغي أن يكون للشاب ميزةٌ في التَّنَقل في البلاد بين المسلمين والكفار، وينبغي أن يكون للكفار ميزة حتى يُعرَفوا وحتى لا يتشبهوا بالمسلمين؛ فإذا كان للمسلمين قوة ينبغي أن يُلزموا الكفار بزيٍّ خاص، وإذا لم يكن لهم قوة ينبغي أن يتزيَّوا هم بزيٍّ يُميِّزهم عن أعدائهم إذا كان هناك اختلاط كثير واشتباه، حتى لا يشتبهوا بالمسلمين في مراكبهم وفي لباسهم، فلا بد عند الاشتباه من العناية بزيٍّ يُميز هؤلاء عن هؤلاء، سواء كان في المسلمين أو في الكافرين.

ومن أحسن من كتب في هذا الباب شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية رحمة الله عليه، فقد كتب في هذا كتابة عظيمة ومفيدة في كتاب: =

....

= «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، وهو كتاب جيد ينبغي أن يقرأ وأن يُعتنى به اعتناءً كبيراً.

[تحويل القبلة]

۞ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ
ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ
ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ
عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ
تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا

جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٧]. [٣]

[شرح٣] في هذه الآيات من التوجيه والإرشاد والدعوة إلى الخير والتنبيه على ضلال اليهود وجَحدِهم للحق واستكبارِهم عن اتِّباعه ما فيه عظةٌ وذكرى لأهل الإيمان، وهكذا شأن كتاب الله جل وعلا في كل مكان، كلُّه عِظة، وكلُّه ذِكرى، وكلُّه توجيه إلى الخير، لكن لمن تدبَّر وتعقَّل، ولمن آمن بأنه من عند الله جل وعلا، وأنه كلامه سبحانه، فجدير بالمؤمن أن يُعنى بهذا الكتاب العظيم، وأن يُقبل عليه دائماً بتدبر وتعقُّل، وأن يحرص على الاستفادة منه، فإنه كتاب الله الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقد قال سبحانه فيه: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقال أيضاً: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وفيه يقول: ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ =

....

= ﴿مُصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ويقول أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فجدير بالمؤمن ـ ولا سيما طالب العلم ـ أن يَخُصَّ هذا الكتاب بالعناية العظيمة في قراءته وتلاوته وتدبُّره، والحرص على الاستفادة منه، ومعرفة مراد الله منه، حتى يعمل بذلك.

فعندما نسخ الله القبلة قبل أن يأتي محمد ﷺ إلى المدينة، حيث صلَّى إلى جهة الشام دهراً طويلاً؛ نحو ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم حوَّله الله إلى الكعبة في رجب أو شعبان من السنة الثانية للهجرة، فبيَّن الله سبحانه وتعالى قول السفهاء من اليهود: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ واستنكروا ذلك وعابوا عليهم هذا التحول عن القبلة التي كانوا يصلون إلى جهتها، وهذا من ظلم اليهود ومن جهلهم ومن عنادهم، فهم يعلمون أن الله جل وعلا ينسخ ما يشاء سبحانه وتعالى، وله التصرف في حُكمِه =

....

= وفي شرعه جل وعلا، ولكن للعيب على المسلمين وللطعن عليهم وللتشكيك فيما جاء به نبيُّهم عليه الصلاة والسلام، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فالمصرِّف هو الله سبحانه وتعالى يولي من يشاء ما يشاء جل وعلا.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه جعل هذه الأمة وسطاً، يعني: عدلاً خياراً، حتى تشهد على هذه الأمة بأن الله بلَّغها، وحتى تشهد على الأمم الماضية بأن الرسل بلَّغت؛ فهي أمة عدلٌ لما أعطاهم الله من الإيمان والاستقامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمراد بذلك أن يستفاد منهم لأنهم أمة وسط، والخطاب لأهل الاستقامة الذين جعلهم الله وَسَطاً وعدلاً وخياراً، قال فيهم سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهؤلاء مستشهَدون على هذه الأمة وعلى غيرها من الأمم أنها بُلِّغت، وأن الرُّسل عليهم الصلاة والسلام قد بلَّغوا، والرسول شهيد على هذه الأمة =

....

= أنه بلَّغها، وأنه أُرسِلَ إليها عليه الصلاة والسلام، وفي هذا بيان لحال اليهود وخُبثهم وضلالهم، وجنس أهل الكتاب مطلقاً، وأنهم يعرفون الحق ويكتمونه على بصيرة، ولكن ربُّنا جل وعلا يُملي ولا يأخذ، فأملى لهم كثيراً، وأمهلهم كثيراً، وعاقبهم كثيراً سبحانه وتعالى.

وهذا يدل على أن الإنسان ينبغي له أن يحذر مشابهة أهل الكتاب في جحد الحق وهو يعلم؛ اتِّباعاً لهواه وإيثاراً لدنياه وشيطانه، واتِّباعاً لما تُمليه عليه نفسُه الأمَّارة بالسوء، أو إيثاراً لحظٍّ عاجل يريد أن يحصِّله في جحده الحقَّ وعدم إقراره به، كما هو دَيدَن اليهود، وديدن رؤساء النصارى وقادتهم وأشباههم من دُعاة الباطل، فكثير منهم يعلم الحق وينكره لأسباب كثيرة، منها: الحسد والبغي، واتِّباع الهوى، وطاعة الرؤساء والأكابر، وطلب الحظ العاجل في الدنيا، ومنها الرشوة إلى غير ذلك.

ففي هذا تحذير من أن يعمل الإنسان مثل عمل أعداء الله من اليهود والنصارى أو غيرهم في إيثار الباطل، وفي جَحْد الحق، وفي =

....

= إنكار ما جاءت به الرسلُ من الهُدَى، من أجل بعض الحظوظ العاجلة، نسأل الله السلامة والعافية.

وفي هذا بيان أن اليهود كانت تعرف رسول الله، وتعرف الحقَّ كما تعرف أبناءها، ولكن حملهم البغي والحسد على إنكار الحق وعلى جحده، حتى لا يقول لهم عامَّتهم: لماذا تعرفون الحق وتُقرُّون به، ثم لا تتبعون هذا الحق ما دمتم تعرفون أن محمداً حق، وأنه رسول الله حقاً؟! فهم يجحدون هذا؛ لئلا يُقال لهم هذا الكلام، ولئلا يُحاجُّهم أتباعهم ورِعاعُهم وعامتهم فيما أقروا به من الحق.

ففي هذا دعوة للمسلمين وحثٌّ لهم على الانطلاق على الطريق السَّوي، وعلى عدم اتِّباع الهوى، وأن أهل الإيمان إذا اتَّبعوا أهواءهم واتَّبعوا أهواء أهل الكفر بالله من اليهود وغيرهم هَلكوا وضلُّوا، فالواجب هو اتِّباع الحق، ولن يرضى عنا مشركٌ قط إلا باتِّباع ما هو عليه من الباطل، وإذا اتبع المسلمون أهواء أعداء الله هلكوا وضلوا عن سواء السبيل، واتِّباع أهواء الكفار تارةً يكون رِدَّةً، وتارةً يكون معصيةً، وتارةً يكون دون ذلك. =

....

= فالحاصل أن الواجب على أهل الإيمان الحذر من اتِّباع الهوى، سواء كان الهوى لزيدٍ أو عمرو أو اليهود أو النصارى أو غير ذلك، وأن يكون هدفه اتِّباع الحق، سواء كان الحق مع أصحابه وأوليائه، أو كان مع خصومه وأعدائه، فهو يُؤثِر الحق ويقبلُه ممن جاء به مطلقاً، وهذا هو الدليل على سلامة الفطرة وسلامة القصد، رزق الله الجميع التوفيق والهداية.

[فضل الصابرين والمقاتلين في سبيل الله]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ
ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ
رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ
حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن
تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا
مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ
أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ
وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ

ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٣-١٦٤]. [٤]

[شرح٤] في هذه الآيات الكريمات من العِظة والذكرى والدلائل العظيمة على وجود الله وقدرته واستحقاقِه العبادة سبحانه وتعالى، وعلى فضل الصبر وفضل الصابرين، وعلى أن الله سبحانه قد يبتلي بعض عباده بشيءٍ من النقص، وأن لهم الفضل العظيم والعاقبة الحميدة إذا صبروا، وفيها الدلالة على الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وهكذا كتاب الله جل وعلا كله دعوة إلى الخير وتحذير من الشر، وبيانٌ لأحكام الله، وحثٌّ على التزامها، وتحذيرٌ مما نهى عنه جل وعلا.

ففي هذه الآيات يأمر سبحانه بالاستعانة بالصبر والصلاة عند =

....

= الـمُلِمّات، وأن الشدائد والكُربات والحاجات التي تنزل بالعبد ينبغي له أن يستعين فيها بالصبر والصلاة، بالصبر على ما ينبغي فيها من أدائها بكل نشاطٍ وقوة، واستكمال ما ينبغي فيها، والحرص على أن تكون على الوجه الذي شرعه الله جل وعلا، فإن الصبر عونٌ للعبد على المُهِمّات، من جلبِ مطلوب ودفعِ مكروه. يُروى عن عمر رضي الله عنه وأرضاه أنه قال: وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر(١). ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبرَ له(٢).

فالصبر له شأن عظيم، وقد ذكره الله في مواضع كثيرة من كتابه، قال بعض السلف: إنه ذُكر في أكثر من تسعين موضعاً من كتاب الله، ومن هذا قوله جل وعلا هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فأمَرَ بالاستعانة بالصبر والصلاة، ثم أخبر أنه مع الصابرين سبحانه وتعالى، =

(١) علَّقه البخاري، باب الصبر عن محارم الله، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، قبل الحديث (١٤٦٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢١٠٣١)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٣٩).

....

= وهذه معيَّةٌ خاصةٌ تقتضي توفيق الصابرين ونصرهم وإعانتهم وتسديدهم إلى غير ذلك، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، إلى غير ذلك. فالمقصود أن المعية الخاصة لها شأن غير المعية العامة، فالصابرون هم أهل التقوى والإيمان والثبات على الحق، وينال غيرَهم من أعدائهم من فضل الصبر شيءٌ كثير؛ فالصبر ثبات واستمرار على الحق، وهو الحرص على الأخذ بأسبابه، فإذا أخذ بها أهلُ الإيمان نجحوا وأفلحوا، وإذا أخذ بها غيرُهم فقد يُنصرون بها على ضدهم، فينبغي على أهل الإيمان أن يكونوا أصبرَ الناس وأثبتهم على حقهم، وعلى الدفاع والذَّبِّ عنه، وعلى إنكار الباطل ومحاربته، فإذا كان غيرهم قد يصبرون وهم على باطل،فأهلُ الإيمان والتقوى أولى بالصبر على حقهم والثبات عليه.

ثم فيه أيضاً الدلالة على أن العباد قد يُبتَلَون بالنقص في الأموال والأنفس والثمرات، وقد يُبتَلَون بشيء من الخوف والجوع، وهذا قد يقع لأولياء الله وأنبيائه، فأشد الناس بلاءً =

....

= الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، فالنبيُّ قد يُبتلى، والصالح قد يُبتلى، فينبغي أن يقابل ذلك بالصبر والثبات على الحق والحذر من الباطل، والأخذِ بالأسباب التي تعين على الصبر وعلى الحق وعلى ترك الباطل. والصابر: هو الذي يحبس نفسه على الشيء المطلوب، وعلى ترك الشيء المكروه، ويجاهدها حتى يقطع المسافة وينتهي وقت الخطر.

ثم بيّن جل وعلا ما للصابرين من الخير فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فهذه بشرى من الله جل وعلا، لما لهم عنده من الصلوات والرحمة والهداية، وهذا من جزائهم؛ أن الله جل وعلا يثني عليهم في الملأ الأعلى ويرحمهم برحمته العظيمة الخاصة، ويهديهم سبحانه وتعالى، يروى عن عمر ﷺ أنه قال: نِعمَ العِدلان ونِعمتِ العِلاوة[1]. العِدلان: الصلاة والرحمة، والعلاوة: الهداية، فينبغي للمؤمن أن يجاهد نفسه في هذا الباب وغيره من أبواب الخير، وأن يتحرى ما شرعه الله له في جميع أموره وشؤونه، وأن =

(١) علقه البخاري في «صحيحه»، باب الصبر عند الصدمة الأولى، قبل الحديث (١٣٠٢).

....

= يحذر الجزاء وعدم الصبر في جميع الأمور، ومن ذلك ما يُبتلى به من موتِ قريبٍ وصديقٍ ونحو ذلك، وما يُبتلى به من مرض أو فقر أو ما أشبه ذلك، فليعالِج بالصبر وليأخذ بالأسباب، والصبر: حبسٌ على الحق وكفٌّ عما سواه مع الأخذ بالأسباب؛ كعلاج المريض وعلاج الفقر وعلاج الأشياء الأخرى التي يُبتلى بها، فيعالجها بما شرع الله جل وعلا، فيعالج ما يبتلى به من معاصٍ بالتوبة والندم والإقلاع، ويعالج المصائب التي تصيبه كالمريض بالدواء، وكالفقر بالأخذ بأسباب العيش المباحة، ويعالج البدع بإنكارها والحذر منها، والدعوةِ إلى السنة، ويعالج الكفر بالتحذير منه والدعوة إلى التوبة والإسلام، وهكذا المؤمن في جميع أحواله يعالج المشاكل بما شرع الله له من الدواء والعلاج، ويصبر على الحق ويثبت عليه، ويأخذ بالأسباب التي تعينه للثبات على الحق وعلى محاربة الباطل.

وفي هذه الآيات أيضاً الدلالة على وجوب إظهار الحق وبيانِه، وأن إظهار الحق أمرٌ لازم، وأن كتمانه من الكبائر ومن صفات =

....

= اليهود الخبثاء، فالمؤمن يُجاهد نفسه في إظهار الحق والدعوةِ إليه والصبرِ على ذلك، ومع ذلك يحذر الكتمان في أي شيء، وإذا وقع منه شيء من ذلك بادر بالتوبة والإصلاح والبيان.

ويبيِّن الربُّ سبحانه وتعالى أن التوبة من تمامها ومن شرطها: الإصلاح والبيان، فمن تاب مما مضى من سيئاته يجب عليه أن يصلح أموره، ويُتبعَ التوبة بالإيمان الصادق والعمل الصالح وبيان الحق، قال: ﴿ وَبَيَّنُوا ﴾ فلا بُدَّ من إظهار الحق والدعوة إليه، ولا بد في التوبة من إتباعها العمل الصالح، ولا بد من إتباعها البيان، فإذا كانت توبة من كتمان فلا بد من بيان حتى يعلم أنه رجع عن باطله، وأنه ثبت على الحق وصار إليه، بخلاف اليهود وأشباه اليهود، فإنهم يرون إظهار الحق والتوبة نقصاً عليهم، فيستمرون في كتمان الحق وإنكاره؛ لأجل تثبيت أهوائهم وأغراضهم الخسيسة، فلا ينبغي للمؤمن أن يتشبه بأعداء الله في كتم الحق وعدم إظهاره لغَرَضٍ من الأغراض، ولا ينبغي له أن يستحيي من الرجوع إلى الحق، فالرجوع إليه فضيلةٌ وحقٌّ، والبقاء في الباطل رذيلةٌ وذلٌّ =

....

= وهو أن وتعرضٌ لسخط الله ﷻ، فلا بد من الرجوع إلى الحق، ولا بد من الحذر من الباطل، حتى تسلم من غضب الله وعقابه، وحتى تفوز بأسباب الكرامة والعاقبة الحميدة.

وفي قوله جل وعلا: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ دِلالةٌ على استحقاقه للعبادة، وأنه الرب العظيم، وأنه المانع القادر، وأنه الرحمن الرحيم، وأنه المالك لكل شيء، وأنه المتصرفُ في شؤون عباده، وأن العبادة حقه سبحانه وتعالى.

ولهذا ذكر بعد ذلك الدلائل على وجوده وربوبيته فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى آخر الآية، فذكر أشياء عديدة تدل على قدرته العظيمة من اختلاف الليل والنهار، واختلاف السماء والأرض، والفُلْكِ التي تجري في البحر بما ينفع الناس من الأرزاق والحاجات الأخرى، فكلها من فضله وإحسانه جل وعلا، فالذي خلق السماوات والأرض وجعل الليل والنهار مختلفَيْنِ، وثبَّت هذه الجواري في البحار من مواخرَ وسفنٍ وغير ذلك، وثبَّت هذه الطائرات في الجو، وأعطى =

....

= العباد ما أعطاهم من المراكب، كل ذلك يدل على استحقاقه العبادة، وأنه الخلاق العليم، وأنه قادر على كل شيء، وهكذا تصريف الرياح، وهكذا السحاب المسخر بين السماء والأرض، وهكذا ما بث في الأرض من دواب، وهكذا ما فيها من معادنَ وجبال وأنهار وبحار، كل هذه دلائل على قدرته العظيمة، وأنه رب العالمين، وأنه الخلّاق العليم.

فينبغي للمؤمن أن يتفكر وينظر كثيراً في مخلوقات الله وما فيها من الدلائل على عَظَمته سبحانه، كما ينظر كثيراً في شرعه وما أمَرَ به من أحكام؛ لما فيها من الدلالة على حكمته العظيمة، وعلى علمه العظيم، وعلى أنه سبحانه شرع لعباده ما فيه صلاحُهم ونجاتُهم، واستقامة أخلاقهم وحالهم مع ربهم ومع الناس.

ومن تدبر ونظر رأى العِبَر، ورأى الفوائد العظيمة، وكان هذا من أسباب صلاح قلبه وصلاح أعماله، قال بعض السلف: من كانت له فكرة كان له في كل شيء عبرة. فالتفكر والنظر في مخلوقات الله وما أودع في الأرض والسماء، والتفكر في نفسك وما =

....

= جعل فيك من عجائب وآيات وعِبر، والتفكر في غيرك، كل ذلك من الدلائل على عَظَمة خالقك سبحانه وتعالى، وعلى أنه ربُّ الجميع، وعلى أنه الإله الحق، وأنه مستحق العبادة، وأن العبادة لغيره كفرٌ وضلال.

[التوجيه إلى مكارم الأخلاق]

۞ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥-١٧٧]. [٥]

[شرح٥] في هذه الآيات التوجيه إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن =

....

= الأعمال، والتحذير من سفاسف الأخلاق، وسيئ الأعمال، وفيها الدعوة إلى القول بالعِلم والأخذ به، والحذر من التقليد الأعمى الذي يشبه صاحبُه البهيمة، وينقاد لكل ناعق، ولا يعرف حقاً ولا باطلاً بدليله، وهذه حال أعداء الله من المشركين ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وفي هذا يقول جل وعلا: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

والمعنى: أنه ليس لهم عناية بالفهم ولا بالدليل، ولكنهم كالبهائم التي يُنْعقُ لها يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ فليس عندهم إلا اتِّباع الأسلاف والأجداد والأصحاب والأصدقاء وما أشبه ذلك.

فالمؤمن مأمور بأن يتَّبع ما أنزل اللهُ، ويأخذ بالحق ويلزمه وإن خالف آباءه وأجداده وأسلافه، وإن خالف عادةَ بلده وقومه، =

....

= ويدعَ الباطل وإن كان عليه أسلافه؛ لأن الله بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيان الحق والدعوة إليه، وإنكار الباطل والنهي عنه، فليس لأحدٍ أن يُعرِض عما جاءت به الرسل، ويقول: هذا كلام أبي وجدي، أو عادة قومي، بل يجب عليه أن يقصد الحق ويطلبه، وأن يعمل به مع من كان وممن كان، ولا يتقيد بأنه قال فلان أو ذهب إليه فلان أو ما أشبه ذلك.

وفي الآيات المذكورات أيضاً الدلائل على أن الأصل في الأشياء الحِلُّ والإباحة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ والخطوات: هي ما يدعو إليه من الباطل، فالواجب على المؤمن أن يحذَرَ خطواته، وأن يأخذ بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من الهدى والعلم.

ويبيّن جل وعلا أن الشيطان يأمرُ بالفحشاء والمنكر، ويدخل في هذا كل ما نهى اللهُ عنه من الشرك وما دونه، ومن خطواته: الدعوة إلى القول على الله بغير علم، والله حرَّم ذلك كما قال سبحانه: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ =

....

= ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فجعلها في المرتبة العليا فوق الشرك؛ لأن المشرك قد قال على الله بغير علم، وهكذا كلُّ كافر وكل مخالف للحق قال على الله بغير علم، فالواجب على المكلَّفِين قَبول الحق والأخذ به والحذر من القول على الله بغير علم، وهذا يوجب النظر في الدليل والعناية بما جاءت به الرسل ولا سيما نبينا محمد ﷺ وهو نصيبنا وحظنا. فإن لم يكن عند الإنسان علم فعليه أن يقول: الله أعلم، ويقول: لا أدري، ولا يتكلم بلا علم، فإن القول على الله بغير علم يوقع في شرٍّ كثير، في كفر ومعاصٍ وضلال وتحليلِ ما حرم الله، إلى غير ذلك، وهذا ما يدعو إليه الشيطان، فهو يدعو الناس إلى أن يقولوا على الله بغير علم حتى يكثر الباطل وتكثر البدع والأهواء، وحتى يقِلَّ الحق.

وفي هذه الآيات أمر الله تعالى بالأكل من الطيبات مع الشكر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فالواجب شكر الله على =

....

= نِعَمه، وإن كان الأصل في الأكل من الطيبات هو الإباحة إلا أن الإنسان مأمور بأن يأكل مما رزقه الله حتى يحفظ قوَّتَه وصحتَه، ويستعين بنعم الله على طاعته، فالأكل يكون حلالاً ويكون مباحاً ويكون مستحباً ويكون واجباً، ولهذا أطلق الله الأمر بذلك ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فقد يكون الأكل عليه واجباً إذا كان تركُه يُفضي إلى هلاكه، وقد يكون مستحباً إذا احتاج إلى ذلك، وقد يكون مباحاً على حسب حاجة العبد.

فالحاصل أن الله أباح لنا الأكل من الطيبات وأمرنا بالشكر ووجب علينا أن نشكره سبحانه، وشكرُه يكون بالقيام بحقه قولاً وعملاً وعقيدةً، وهذا مثل قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، فلو أن أحداً يُسامَحُ من العمل لكانت الرسل أولى بذلك، لأنهم خير الخلق وأفضلهم، وأعلم الناس بالله، ومع هذا أُمِروا بالعمل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، وهكذا قال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ والشكر هو =

....

= العمل ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]، والعمل يكون بالعقيدة الطيبة الموافقة لشرع الله، ويكون بالقول الطيب الموافق لشرع الله، ويكون بالعمل الصالح الموافق لشرع الله، فالقول وحده لا يكفي، فلا بد من قول طيب ولا بد من عقيدة طيبة ولا بد من عملٍ طيب، بأداء ما أوجبه الله وتركِ ما حرَّمه الله، فالشكر يكون باللسان ويكون بالقلب ويكون بالعمل، أما الشكر باللسان: فهو الثناء على الله جل وعلا بما هو أهله سبحانه وتعالى، وعملُ ما أَمَرَ به والنهي عما نهى عنه، والإكثار من ذكره إلى غير ذلك، والشكر بالقلب: محبة المنعِم والإخلاصُ له وخوفه ورجاؤه، واعتقاد ما أباح وما أَحَلَّ وما أوجب إلى غير ذلك، والشكر بالعمل: أداء ما أوجب الله واجتناب ما حرم الله.

ثم ذكر بعد ذلك شدة الوعيد في حق من كَتم ما أنزل الله، وما وُعدوا من البلاء والعذاب بسبب كتمانهم الحقَّ ليشتروا به ثمناً قليلاً، والشراء هنا ليس معناه الشراء الاصطلاحي عند الفقهاء (البيع والشراء)، وإنما المقصود به: الاعتياض، كما في قوله ﷻ: =

....

= ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦]، يعني: يعتاض ولو دون بيع وشراء، فالمقصود أن اليهود وأشباه اليهود ممن كتَمَ الحق، ليعتاضوا عنه شيئاً من الباطل، وسمي شراءً لأن الشراء معاوضة، فهو اعتاض عن الحق الذي كتمه دياثة أو جحوداً أو عروضاً أو غير ذلك مما يُعْطاها كاتم الحق من اليهود وغيرهم.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ إلى آخر الآيات، وهذه فيها أيضاً بيان الإيمان وأنه أقوال وأعمال وعقيدة، فالإيمان عند أهل السنة قولٌ وعمل، قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، ويعبِّر بعضهم بقوله: قولٌ باللسان وعملٌ بالأركان وعقيدةٌ بالجَنانِ، فقول القلب: إقراره واعترافه، وقول اللسان: نُطْقه، وعملُ القلب: بخوفه ورجائه ومحبته وإخلاصه إلى غير ذلك، وعملُ الجوارح: بأداء الفرائض وترك المحارم إلى غير ذلك.

أما مفهوم الإيمان عند أهل البدع، فهو عند بعضهم: القول فقط، وقال بعضهم: المعرفة فقط، وقال بعضهم: القول والكلام فقط، وقال بعضهم: قول وعمل ولكن لا يزيد ولا ينقص، =

....

= كالخوارج والمعتزلة، بخلاف أهل السنة والجماعة الذين قالوا: قول وعمل يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وهذه الآية تدل على قول أهل السنة والجماعة، فقد ذُكر فيها الإيمان وذُكر فيها العمل، فذَكر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، هذه عقيدة القلب، ثم قال: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ﴾ إلى آخره، هذه هي الأعمال التي تدل على أن الإيمان قول وعمل ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ وهذا أيضاً من عمل القلب والجوارح جميعاً.

ثم قال بعدُ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ فدلَّ على أن الصادقين المؤمنين المتقين هم أهل القول والعمل، فهم أهل العقيدة الصادقة والعمل الصالح، فالمتقي الصادق المؤمن هو الذي يجمع بين هذه الأمور؛ يقول بلسانه، ويعتقد بقلبه الحق، ويعمل بجوارحه حسب طاقته. بخلاف الكذّابين والـمُقصِّرين، =

....

= فالمنافق يقول ولا يعمل، ليس بصادقٍ، وليس عنده عقيدة، وإنما يقول فقط لحَظِّه العاجل ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، هذا شأن المنافقين وأشباههم من العصاة، يقول ويعتقد ولكن لا يعمل، بل يطيع هواهُ، فتجده مقصراً فيما أوجب الله، تاركاً لبعض ما أوجب الله، فاعلاً لبعض ما حرمه الله عليه من الفواحش والمنكرات، فهذا من ضعف إيمانه وقلة بَصِيرته، وقع فيما وقع فيه من الباطل فصار إيمانه ناقصاً ودينُه ضعيفاً، بسبب أنه ليس عنده من الإيمان القوي والتصديق بالله وأمرِه ونهيه ما يجعله يدع ما حرَّمه الله عليه، ويؤدي ما أوجبه الله عليه بتمام.

فما حصل عنده من الضعف في التصديق والإيمان والرغبة فيما عند الله، والشوق إليه جل وعلا، والإيمان بما أخبر به سبحانه وتعالى من الوعد لأهل الإيمان، والوعيد لأهل الكفر والنفاق، لَـمَّا ضَعُفَ هذا في قلبه حصل عنده ما حصل من النقص، وقد جاء حديث أبي هريرة في «الصحيحين» يدل على هذا المعنى حيث قال =

....

= عليه الصلاة والسلام: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»[١]، وفي رواية: «بضع وستون شعبة»[٢]، وفي رواية مسلم: «فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[٣].

هذا الحديث يدلُّ على ما قال أهل السنة والجماعة من كون الإيمان قولاً وعملاً يزيد وينقص؛ فبالأعمال الصالحات يزداد وبالغفلة والإعراض والمعاصي ينقص، فالواجب على المسلم أن يعنى بهذا الأمر، وأن يحذر من نقص إيمانه، وضعف إيمانه في إقدامه على ما حرم الله، أو تساهله بما أوجب الله، أو غفلته عما يجب عليه.

ومن أسباب هذا الخير التواصي بالحق والتناصح فيما بين المسلمين، والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الإنسان يغفل أو يجهل، فإذا وجد من إخوانه من ينصحه ويذكره ويشجعه على الحق ويحذره من الباطل ويزجره عنه =

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: الإيمان (٩)، ومسلم: الإيمان (٣٥).

(٣) أخرجه مسلم: الإيمان (٣٥).

....

= ويبين له سوء مغبَّته صار بذلك من أسباب رجوعه إلى الحق، ومن أسباب نشاطه في الخير، ومن أسباب تركه لما حرَّم الله.

وأما الغفلة وقلة الداعي وقلة الـمُنْكِر للمُنْكَر وقلة الآمر بالمعروف، فإن هذا مما يزيد الباطل باطلاً ويزيد الغفلة غفلةً ويزيد الكسل كسلاً ويزيد المقصر تقصيراً إلى غير ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[حِكَم وأسرار خلق الأهلَّة]

۞ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ
وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ
مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ
وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ
عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ
كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا
عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ
قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ
عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ

مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم
مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ
فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ
يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ
ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن
فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا
تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ
وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟
فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟
ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن
كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ
أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾
[البقرة: ١٨٩-١٩٩]. [٦]

[شرح٦] في هذه الآيات الكريمات فوائد عظيمة وأحكام كثيرة، يعرفها طالب العلم بالتدبر والتعقل لهذه الآيات العظيمات، =

....

= وتُعرف أيضاً بدَرْس ذلك من كتب التفسير، ولكن نذكر بعض ما اشتملت عليه من بعض الأحكام:

يقول الله جل وعلا: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ يُبيِّن سبحانه وتعالى أن الله خلق هذه الأهلَّة لحِكَمٍ وأسرار، ذكر منها أنها مواقيت للناس والحج، بها تُعرف الشهور والسُّنون، ويعرف الناس آجالَ ديونهم، وعدةَ نِسائهم، إلى غير ذلك، فالله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سُدى، بل كل ما خلق وكل ما شرع هو لمحض الحكمة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٨٣]، قال بعضهم: إنهم سألوه عن الأهلَّة كيف تطلع ضعيفة دقيقة، ثم تنمو حتى تمتلئ ويكون نورها، ثم تضعف بعد ذلك، إلى آخره، وقيل: سألوه عن حكمة ظهورها وغروبها. فالله جل وعلا يُبيِّن لهم أن الحكمة تتحقق بكونها مواقيتُ للناس والحج، يعرف الناس بها مواقيت معاملاتهم وديونهم وحقوقهم وعِدَدِ نسائهم ووقت الحج ونحو ذلك.

ثم يُبين جل وعلا أن ليس البِرَّ بأن نأتي البيوتَ من ظهورها، =

....

= وليس البِرَّ بأن نُوجِّه وجوهنا قِبَل المشرق في آية أخرى، ولكن البِرَّ هو التقوى والإيمان، ففي هذه الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وفي الآية السابقة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، فيبين سبحانه أن البِرَّ ليس بأن يُولِّي العبد وجهه هاهناك أو هاهنا، ويدخل من هذا الباب أو ذاك، أو من ظهر البيت، ولكن البر هو إيمانه بالله وتقواه لله سبحانه وتعالى، وأن يكون عبداً مأموراً، وأن يكون مطيعاً لله ولرسوله ﷺ، مهما أُمرت ائتمرتَ، ومهما نُهيت انتهيت، وذلك عن إخلاص وعن إيمان، لا عن هوى وأغراضٍ خاصة، ولا عن تقليد أعمى، فهذا هو البِرُّ، وهذا هو الإيمان، وهذا هو الدين.

ومن فوائد هذه الآيات قوله جل وعلا: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ للناس في هذه الآية تفسيران:

أحدهما: أنه يُراد بذلك أننا نقاتل من قاتَلَنا، ونكفُّ عن من كفَّ عنا، كما هو الحال في أول الأمر، فقد كان المسلمون يقاتِلون =

....

= من قاتلهم ويكفُّون عن من كف عنهم، كما قال جل وعلا في سورة النساء: ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٠]، ثم نُسخ ذلك في الآيات الأخرى التي بعدها: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣] والآية في سورة التوبة: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

فمتى نكفُّ عنهم؟ قال: إن تابوا من الشرك، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فخلُّوا سبيلهم، فدلَّ ذلك على أنه لا يُكَفُّ عنهم إلا إذا تابوا من شركهم وأدَّوا حق الله، أو أدَّوا الجزية كما ورد في الآية الأخرى في أهل الكتاب: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] من أهل الكتاب ومن يلحق بهم من المجوس، هذا أحد القولين وهو قول جيد. وقال: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ أي: ولا تبدؤوهم بقتال وهم ما بدؤوه. =

....

= **والقول الثاني**: أن الآية الكريمة ليست في هذا المعنى، وأن المراد: قاتِلوا مَن هو أهل للقتال ومستعد للقتال، وهم الرجال الكبار، بخلاف النساء والصبيان والشيوخ العاجزين وأشباههم، فإن هؤلاء ليسوا أهل قتال، قالوا: ويدلُّ على هذا أنه قال بعد ذلك بقليل: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ فدلَّ هذا على أن المراد بذلك قتال من هم من أهل القتال، وليس المراد قتال من قاتل والكف عمن كفَّ، فهذا أمر قد مضى وانتهى، ومن هذا قوله في سورة الأنفال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وهي الشرك، وتطلق الفتنة أيضاً على الكفر والردة عن الإسلام، فالمعنى: قاتلوهم حتى تزول فتنتهم لكم بإيقاعكم في الشرك، وحتى يزول الشرك نفسُه بالتوبة إلى الله ﷻ، وذلك ليكون الدين كله لله ويعبد الناس الله جل وعلا ويدَعُوا ما هم عليه من الباطل والشرك.

ولا منافاةَ بين القولين؛ فقد استقرت الشريعة على أن المسلمين يقاتلون من قاتلهم ويبدؤون من لا يقاتلهم إذا كانت لهم =

....

= القوة؛ لأنهم يَدعون إلى الجنة، ويَدعون إلى النجاة، ويَدعون إلى صلاح المجتمع، ويَدعون إلى عمارة هذه الدنيا بطاعة الله ورسوله وتوحيده سبحانه وتعالى، فلهم أن يبدؤوا ولهم أن يقابِلوا.

وأما قول من قال من الكُتّاب: إن الإسلام يُدافع فقط ويقاتل مَن قاتل فقط، على هذا الإطلاق، فهو خطأٌ من قائله، إنما كان هذا في فترةٍ من الزمان وفي وقت من الأوقات كان يدافع فقط، ويكف عمن كف، ثم لما قوي المسلمون وفتح الله عليهم مكة، وصارت لهم شوكة عظيمة وقدرة على قتال أعداء الله خرجوا لقتالهم؛ فخرجوا مع النبي ﷺ لقتال الروم في غزوة تبوك، وقاتلوا أهل خيبر عام سبع من الهجرة، وخرج المسلمون بعد وفاته ﷺ إلى الروم وإلى فارس وقاتلوا أعداء الله ولم يقفوا عند حدِّ الدفاع فقط، فالإسلام ليس دين دفاع ولكنه دين دفاع وبدء وهجوم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولإخراجهم من الباطل إلى الحق، لدعوتهم إلى ما فيه نجاتُهم وسعادتهم، والحكم بينهم بما فيه الخير لهم والصلاح والسعادة العاجلة والآجلة، فكيف يكون دينَ دفاع =

....

= فقط؟! هذا خطأ كبير، ثم هذا مخالف لهذه الآيات الكريمات، فكلها تتفق على أن القتال يستمر﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ فعُلم بذلك أنه يقاتل فداءً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولإنقاذهم من الجَور والظلم ـ ظلم الأديان وظلم الظَّلَمة ـ إلى عدل الإسلام ونوره وسعته، وإلى الحق والهدى، وأن به نجاتَهم وسعادتهم في العاجل والآجل، وهذا هو الصواب، فالجهاد له أطوار:

الطور الأول: الجهاد فقط.

والطور الثاني: قتال من قاتل والكف عمن كف وجوباً.

والطور الثالث ـ وهو أعلى الأطوار ـ: القتال ابتداءً لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإنقاذهم من الباطل، ولإخراجهم من حكم الجوَرَة والظَلَمة وضيق الدنيا إلى عدل الإسلام وسعته، وإلى أسباب النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

وإذا كان الكفرة يقاتِلون الناس لمصالحهم العاجلة، ويستعبدونهم ليأخذوا ثروات بلادهم ويظلموهم، فكيف =

....

= يستنكرون على الإسلام وكيف يعيبون الإسلام بالبدء بالقتال لإخراج الناس من الظلمات إلى النور لنفعهم ولمصلحتهم، لا لمصلحة المسلمين، ولا لأجل الطمع في الدنيا؟! إنما قاتلوا أعداء الله لإخراجهم من الظلمات إلى النور لا لأجل المال، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعلي ﷺ لما بعثه إلى خيبر: «والله لأنْ يهدي اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النعم»[1]، يبين للناس أن المقصود ليس هو المال ولا النساء ولا الذرية، إنما المقصود هدايةُ الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا هداية الواحد خير من الدنيا وما عليها. وفي الحديث: إذا أمَّر أميراً على جيش أو سَريةً أوصاه بتقوى الله[2]، كما في حديث بُريدة، ثم يأمره أن يستعين بالله ويقاتل الكفرة، ثم بعد ذلك إذا أبوا إلا الجزية أخذ منهم الجزية وكف عنهم.

وهذا ـ عند العلماء ـ في اليهود والنصارى والمجوس، لأن الرسول ﷺ أخذها منهم، وما سواهم يُقاتَل حتى يدخل في =

(١) أخرجه البخاري: المناقب (٣٧٠١)، ومسلم: فضائل الصحابة (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم: الجهاد والسير (١٧٣١).

....

= الإسلام؛ لأن الرسول ﷺ لم يأخذ من أهل الجزيرة جزية بل قاتلهم حتى دخلوا في دين الله، فقاتل أهلَ مكة، وقاتل الصحابةُ بني حنيفة ولم يأخذوا الجزية ولم يرضوا بذلك ولم يدعوهم إليها، بل دعوهم إلى الدخول في دين الله، فالجزية تؤخذ من اليهود والنصارى بنص القرآن، ومن المجوس بنص السنة، أما ما سواهم فلا تؤخذ منهم الجزية عند أكثر العلماء، وقال آخرون: بل يلحق بقية الكفرة إذا أدوا الجزية لحديث بُريدة المتقدم.

والحاصل أن الإسلام ليس دينَ دفاع فقط، إنما كان دين دفاع عند العجز والضعف، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الآية لم تُنسخ، وآيات الدفاع لم تُنسخ، ولكن المسلمين لهم حالات: حالة تكون عندهم قوة ونشاط وعددٌ وعُدة، فلهم حينئذٍ أن يدافعوا وأن يبدؤوا، وحالةٌ أخرى يكون عدوُّهم مسيطراً عليهم وليس عندهم من القوة ما يقابِل، ويُخشى عليهم من أن يستبيح العدو غيرتهم، ففي هذه الحالة يكتفون بالدفاع، والدليل الذي يقطع بالدفاع هو حال المسلمين في أول الإسلام وقبل أن يقووا كانوا يدافعون فقط. =

....

= وهذا هو أصل المقال، وهو الحق الذي ينبغي أن يُعلم، وقد أوضح هذا المعنى جماعة من أهل العلم منهم أبو العباس ابن تيمية ﷺ في كتابه «الصارم المسلول للرد على شاتم الرسول» وغير ذلك، ومن تدبر كتاب الله وجد ذلك، وقد كتب الناس في هذا كتاباتٍ كثيرة لبيان هذا الحق وإيضاحه، ومن ذلك أني كتبت رسالة مختصرة في هذا السبيل لإيضاح هذا الحق وبيان وجه الصواب فيه، وقد طُبعت.

ومن أحكام هذه الآيات العظيمات: بيان حُكم الإحصار، وأن المُحصَر إذا أُحصِر يحل: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ فإذا أُحصِر المسلم قاصد الحج والعمرة فإنه يحل وينحر هدياً ويحلق ويرجع إلى بلاده. وقد وقع هذا للنبي ﷺ، فأحصره أهلُ مكة في عام ست من الهجرة، ولم يمكّنوه من دخول مكة، فنحر هديه وحلق رأسه، وهكذا فعل أصحابُه، ثم رجعوا إلى المدينه بعد ما تمت القضية بينهم على أن يعتمروا في العام القادم، وسميت هذه عمرة القضاء. =

....

= فالمقاضاة: المصالحة، وهذا لا بأس به وهذا من عدل الإسلام، ومن محاسن الإسلام أن يرضخ للحصر والاتفاق على الرجوع إذا دعت الحاجة إلى ذلك، أو عجز على مقاومة العدو، وله مصلحة في ذلك، فلا مانع من أخذه بحكم الحصر، فينحر الهدي ويحلق أو يقصر ويرجع إلى بلده إلى وقت آخر.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ هذا في الحصر، أما في الحج فلا بأس أن يحلق قبل أن يُهدي، وقد ثبت عنه ﷺ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يا رسولَ الله، حلقتُ قبل أن أذبح، قال: «لا حرج»[1]، فدل ذلك على أن المراد من ظاهر الآية الإحصار خاصة، لأن الرسول ﷺ نحر قبل أن يحلق وأمر أصحابه بذلك، أما في الحج فالأفضل أن يفعل أربعة أمور مرتّبة:

أولاً: رمي الجمار للمغيب.

ثانياً: النحر أو الهدايا لمن كان عنده الهدي. =

(١) أخرجه البخاري: الحج (١٧٢٢)، ومسلم: الحج (١٣٠٧).

....

= **ثالثاً**: حلق الرأس أو التقصير، والحلق أفضل.

رابعاً: الطواف والسعي لمن عليه سعي.

هذا هو الترتيب المشروع، لكن النبي ﷺ رخَّص في تقديم بعضها على بعض، فلما سُئل عن ذلك قال: «لا حرج»، وهذا من فضل الله وإحسانه بعباده.

ومن فوائد هذه الآيات العظيات: تنبيهه سبحانه على أن الذي ينبغي للحُجّاج أن يتزودوا ولا يحجوا فقراء عالةً على الناس يسألونهم، بل إن قووا على الحج وعندهم مال حجُّوا وإلا تركوا، ولا ينبغي أن يكون الحاجُّ كَلًّا على الناس وسائلاً لهم، فإن سؤال الناس ذل لا ينبغي للمؤمن أن يرضى به إلا عند الضرورة.

ثم نبَّه على زاد أعظم وأكبر، والذي خُلق العباد من أجله، وهو التقوى: ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ نبَّه على الزادَين: زادِ الدنيا الذي يحتاجه المسافر، وزاد الآخرة، زادِ السفر العظيم من هذه الدنيا إلى الآخرة وهو التقوى: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ فأنت يا عبد الله في أشد الحاجة إلى هذا الزاد العظيم، زاد من =

....

= تقوى الله وطاعته سبحانه وتعالى، وأن تستمر على الزاد وأن يكون معك هذا الزاد دائماً، فزاد الدنيا قد يستغني عنه الإنسان في بعض أحيانه، فقد يقضي المؤمن الليلة ولا يحتاج إلى طعام وشراب، لكن زاد التقوى يجب أن يكون معه دائماً أبداً عند كل نَفَس، فيكون مُلتزماً بتقوى الله وطاعته وتعظيمه وترهيبه، والإخلاص له في قيامه وقعوده وفي سفره وإقامته، وفي جميع الأحوال يكون مُلازماً لتقوى الله ومُلازماً للإيمان بالله ملازماً للوقوف عند حدود الله، أينما كان يرجو الله ويخشاه سبحانه وتعالى.

ومن فوائد هذه الآيات أيضاً: كأن الإنسان بعدما يمُنّ الله عليه بالعمل الصالح ويحسن إليه، ينبغي له أن يستشعر في نفسه أنه في حاجة إلى الاستغفار، وإلى الذكر، ولم يُعمل عملٌ يبلغ الكمال، فلا بد من نقص، فلا يُعجَب بعمله أحد، ولا يَمُنُّ بعمله أحد، بل يستشعر أن الفضل لله وحده، وأن الله هو الذي مَنّ عليه بهذا العمل ويسَّره له من حج أو صلاة أو صيام أو غير ذلك. فينبغي له أن يستشعر مِنَّـةَ الله وفضله عليه وإحسانه سبحانه وتعالى، حتى =

....

= يستغفر من تقصيره، وحتى يُكثر من ذكر الله ومن الاستغفار، ويحصل إتمام ما قد نقص، إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة.

وهذا شرع لهم إذا أفاضوا من عرفات أن يستغفروا الله ويكثروا من ذكر الله بعد الحج، وهكذا في الصلاة إذا سلّم الإنسان يستغفر ربه، ويشعر وكأنه مقصِّر، وقوله: «أستغفر الله، أستغفر الله» بعد السلام استشعار بأنه لم يقم بالواجب كما ينبغي، وأنه محلُّ النقص في هذه الصلاة، فأنت يا عبدَ الله في حاجة إلى الاستغفار دائماً، وإلى طلب العفو، وإلى ذكر الله ﷻ، فإن مَن ذَكر الله ذكره الله ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، فإذا غفلتَ فأنت معرَّض لشياطين الإنس والجن، فينبغي لك في سائر أوقاتك أن تكون مُستشعراً لعظمة الله وكبريائه ومراقبته لعبادتك واستغفارك، وأنك محلُّ النقص ومحل العيب. فأينما كنت فلتُكثر من الاستغفار والتوبة والندم إلى الله، وإلى دعائه واستغفاره وذكره سبحانه وتعالى، ولاسيما بعد العبادة، حتى لا يقع في نفسك شيء من العُجْب أو منّة على الله سبحانه وتعالى، فالله =

....

= هو الذي وفقك وأعانك على العبادة قبلها وبعدها سبحانه وتعالى*.

---

* س: ما المقصود بقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]؟

ج: أجمع العلماء أن معنى «ال»: أن مَن دخل الحج وجب إتمامه، ومَن دخل العمرة وجب إتمامها، بخلاف النوافل الأخرى فلا بأس أن يقطعها مع أن الإتمام أولى، ولكن الحج والعمرة لا بد من إتمامها.

س: هل المعنى كما في قراءة مسروق وعلقمة: (وأقيموا الحج والعمرة لله)؟

ج: قد يكون المعنى، لكن القراءة المشهورة هي: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، ولا يعني الإقامة، فالإقامة لا تعني الإكمال والإتمام.

[حكم القتال في الشهر الحرام]

۞ قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٧- ٢١٨]. [٧]

[شرح٧] في هذه الآيات الكريمات فوائد جمة، وكتاب الله كله فوائد، فالسعيد من تدبَّره وتعقَّله وعمل بما فيه، والشقي من أعرض عن ذلك واتبع الهوى والشيطان، نعوذ بالله من ذلك.

يقول سبحانه هنا: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ =

....

= فقوله: ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل من: ﴿ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ فهم يسألون عن حكم القتال في الشهر الحرام، قال تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ يعني: كبير الإثم. فالله جل وعلا حرَّم القتال في الأشهر الحرم لِحِكَمٍ عظيمة، ومنها أن يتسهل للكفار التداول في حاجاتهم، والأسفار في حاجاتهم، والانتقال من بلد إلى بلد لمهماتهم في هذه الأشهر، وهي ثلاثة متوالية: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، والرابع: رجب بين جمادى وشعبان، هذه الأربعة الحرم.

وقد اختلف أهل العلم هل تحريمها باقٍ أم نُسخ إلى قولين الجمهور على أنه نُسخ، واحتج بعضهم على ذلك بأن الرسول ﷺ بدأ القتال مع هوازن في آخر شوال وفي بعض ذي القعدة أو أول ذي القعدة، وبعضهم يقول: في ذي القعدة، وليس ذلك بمحفوظ. والأرجح قول من قال بتحريم القتال فيها، وأنه لا يُبدأ الكفار بالقتال، فإن بدؤونا قاتلناهم، كالمسجد الحرام، لا نبدأ فيه بقتال، فإن قاتلونا قاتلناهم؛ لأن الآية مُحكمة، وليس هناك دليل واضح للنسخ، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ =

....

= ﴿شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]، والمقصود أن ظاهر الآيات يقطع بتحريمها، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

كل هذه الأشياء أكبر من القتال في المسجد الحرام؛ لأن المشركين عابوا على المسلمين ما قد وقع من بعض السَّرايا في ذلك، فبيَّن لهم سبحانه وتعالى أن هذا عظيم، وأنه إقدام على ما حرَّم الله، ولكن أعظم من ذلك وأكبر ما ذكره بعد ذلك ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: صدُّكم الناس عن الحق والهدى وكفركم به جل وعلا.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني: كُفرهم بالمسجد الحرام =

....

= وحُرُماته ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ﴾.

ثم قال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ يعني: فتنة الناس بدعوتهم إلى الشرك بالله أكبر وأعظم مما عِبتُم على المسلمين.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ يبيِّن سبحانه أن الكفار ما يزالون في كيدهم للإسلام وأهله، وحرصهم على إخراجهم من دينهم الحق إلى الباطل، فهم لا يزالون هكذا يكيدون بكلِّ أنواع الكَيد والمَكْر، والواجب على المسلمين أن يحذروهم وألا يغتروا بما قد يُبدونه من ولاية أو مساندة، فإنهم قد يفعلون ذلك لمقاصد أخرى حتى يتمكنوا من باطلهم.

ثم يقول جل وعلا: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يبين سبحانه أن من ارتدَّ عن دينه حَبِطَ عملُه وخسر الدنيا والآخرة، وباء بالخيبة والندامة بدخول النار، هذا حكمه في الآخرة، أما في الدنيا فيجب =

....

= أن يُقتل، ففي الحديث الصحيح: «من بدل دينه فاقتلوه!»[(١)]، وهذا يبين لنا نشاط الكفار وحرصهم على ارتداد المسلمين وكفرهم، وأن من يرتد عن دينه ومات على ذلك فقد حبط عمله.

ويستفاد من هذه الآية العظيمة أن حُبوط الأعمال معلّق بالرِّدة والموت جميعاً، فمن ارتد ومات على ذلك حبط عمله، ومن هَداهُ الله ورجع إلى الحق وإلى دين الله لم تحبط أعماله؛ حيث يكون قد أسلم على ما أسلف من خير، وهذا يوافق ما جاء في حديث حكيم بن حزام، لما ذُكر للرسول ﷺ أنه فعل في كفره أشياءَ من عتاقةٍ وصدقةٍ وغير ذلك، فقال له النبي ﷺ: «أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير»[(٢)]. فالإنسان برجوعه للإسلام ودخوله في الإسلام، يُحْرِز ما سبق من العمل الصالح من صِلة رحم أو صدقات أو عتق وما أشبه ذلك، فإذا أسلم يبقى له هذا الشيء فضلاً من الله سبحانه وتعالى، وهذا يبين لنا أن المرتد تبطل أعماله من حج وصلوات وغير ذلك إذا مات على ردته، ولا تنفعه، =

(١) أخرجه البخاري: الجهاد والسير (٣٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري: الزكاة (١٤٣٦)، ومسلم: الإيمان (١٢٣)، واللفظ لمسلم.

....

= قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] نسأل الله العافية، لكن لو رجع وتاب إلى الله بعد ردةٍ، واستقام، فإنه يبقى له العمل الصالح السابق؛ لأن الشرط لم يوجد، وهو موته على الكفر. ومما يدل على هذا أيضاً الآية الكريمة الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١] فتقييده ذلك بقوله: ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يوافق هذه الآية. وهذه الآيات مقيِّدات للآيات الأخرى التي هي للإطلاق، مثل ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] وأشباهها، فحبوط العمل مقيَّدٌ بالموت على الردة، فمن هداه الله ورجع للحق والصواب بقي له عمله الصالح كما تقدم في حديث حكيم بن حزام، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] في هذه الآية دلالة على أن الرجاء الصحيح إنما يكون مع العمل، أما من فرَّط وأضاع فرجاؤه خِداعٌ وظلم لنفسه وتفريط، وهذا من =

....

= الشيطان ومن النفس الأمارة بالسوء، ومن الخداع للنفس حتى تستمر في باطلها، فالله جل وعلا يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ والمعنى: أن هؤلاء الذين فعلوا هذه الأشياء هم الراجون لرحمة الله، وأما الـمُفرِّطون والمضيِّعون فليسوا على الرجاء الحقيقي، بل على خطر، وعلى سوء عمل وتفريط، فهم جديرون بالعقوبة لتفريطهم وإضاعتهم.

ومن هذا قوله سبحانه وتعالى في سورة براءة: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٧١] فعلَّق الرحمة بهذه الأعمال العظيمة، فهؤلاء الذين هذه أعمالهم وهذا شأنهم وهذه صفاتهم، هم الذين يرجون رحمة الله، فالراجي والخائف هو الذي يعمل، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ =

....

= ﴿لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] فهؤلاء بإيمانهم وإشفاقهم وخوفهم من الله سارعوا إلى الخيرات، فإذا فرط منه شيء من التقصير في أداء الواجب أو ركوب المحرم بادر بالتوبة وبادر بالإصلاح والخوف من الله والتوبة إليه، هذا هو الدليل على صدق الرجاء، وعلى صدق الخوف، وعلى صدق الرغبة فيما عند الله سبحانه وتعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله*.

---

* **س: ما حُكم الخوف من الجن عند بعض الناس؟ فإنا نسمع من بعض العامة أنك إذا أَرقتَ ماء حاراً تُسمي؟**

ج: الخوف من الجن مثل الخوف من الإنس، والخوف الطبيعي لا بأس به، فلا بأس أن يتحرى الإنسان أسباب العافية، ويسمي الله عند أكله وعند شربه حتى لا يشاركه الشيطان في أكله وشربه، ويسمي الله إذا دخل البيت حتى لا يشاركه الشيطان في المبيت، أو أراق ماء حاراً فيقول: باسم الله، ويتعوذ بالله على ما قد يصيبه هذا الشيء وما أشبه ذلك، كذلك لا يطبق الأبواب بقوة أو يعمل عملاً زائداً لا حاجة إليه؛ فإن هذا قد يصيب أحداً =

....

= من الجن أو يضره.

فالمقصود أن الخوف منهم من الأشياء الطبيعية التي يتوقى بها شرهم كما يتوقى شر الإنس، فلا يسبهم ولا يتعدى عليهم ولا يظلمهم، ومن تعدى على الناس تعدَّوا عليه، ومن سبهم سبُّوه، فكما تخاف من الإنس وتبتعد عن شرهم ومكائدهم وشر اللصوص والسلاطين الظلمة وشر مَن حولك من المؤذين بالسلامة وحفظ اللسان وحفظ الجوارح، فكذلك الجن. فالجن جيل عظيم، فيهم الفاسق، وفيهم الظالم، وفيهم الكافر، وفيهم المبتدع، وفيهم الطيب والمسلم، فيجب تَوَقِّي الشر من هؤلاء ومن هؤلاء، وإن من المنكَر أن يدعوها من دون الله أو يخافها خوف السر، أو يعتقد أن لها تصرفاً في الكون.

كذلك ورد التعوذ من الشيطان عند القراءة لتأمن كيده وتلبيسه عليك.

[أحكام الحيض]

۞ قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢-٢٢٧]. [٨]

[شرح٨] في هذه الآيات كلماتٌ وأحكام عدة، وتوجيه من ربنا سبحانه لعباده إلى خير الأخلاق وخير الأعمال، وتحذيرٌ لهم مما لا ينبغي من الأخلاق. =

....

= ومن جملة ذلك أنه سبحانه وتعالى أجاب السائلين لنبيه ﷺ عن المحيض، فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ ومعنى المحيض هنا: الحيض، وهو مصدر ميمي مثل: المقام والمقال وما أشبه ذلك، ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ يعني: في حالة الحيض، والحيض: دم يخرج من قعر رحم المرأة في أوقات معينة، مختلفة بالنسبة إلى النساء، قد تكون ثلاثة أيام أو خمسة أو سبعة، وقد تكون أكثر أو أقل، لكن الغالب أنه خمسة أو ستة أو سبعة أيام من كل شهر، كتبه الله على بنات آدم لحكمةٍ عظيمة، وهي غذاء الولد حالَ وجوده في بطن أمه، كما أوضح ذلك أهل العلم.

فالله سبحانه وتعالى أوجب على الرجال اعتزال النساء كزوجاتهم وسبيَّاتهم طوال مدة الحيض، فلا يجوز للرجل الزوج أو السيد أن يقرب الزوجة أو السبيَّة في هذه المدة حتى تطهر، فإذا طهُرت بانقطاع الدم وتطهرت بالماء أو ما يقوم مقامه عند فقده أو العجزِ عنه حلَّت لسيدها أو زوجها.

ولهذا قال: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ وهو أمرٌ =

....

= لوجوب الاعتزال، إذ جاءت الأحاديث التي دلَّت على تحريم وطءِ الحائض، بل غلَّظ التحريمَ في ذلك، ومما جاء في ذلك: «من أتى امرأته وهي حائض تصدَّق بدينار أو بنصف دينار»[1]، فعلى المسلم أن يحذر قِربانها وهي حائض من جهة الجِماع، أما كونه ينام معها ويباشرها فيما دون الفرج فلا بأس، وفي الحديث الصحيح عن أنس ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «اصنَعوا كلَّ شيءٍ إلا النكاح»[2]، فهو دليل على أنه لا بأس أن يقربها بالقُبلة والمباشَرة والمضاجَعة ونحو ذلك دون الجماع، وكان النبي ﷺ يأمر النساء إذا أراد أن يباشرهنَّ وهن حيض، أن يأتزِرْنَ[3]، فالأفضل والسنة الاتِّزار أو السراويل عند المباشرة، لأن ذلك أبعد عن الوقوع فيما حرَّم الله جل وعلا. =

(١) أخرجه الترمذي: الطهارة (١٣٦)، والنسائي: الطهارة (٢٨٩)، وأبو داود: الصيام (٢١٦٨)، وابن ماجه: الطهارة (٦٥٠).

(٢) أخرجه مسلم: الحيض (٣٠٢).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٧٠٨٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٣) من حديث ميمونة.

وأخرج مسلم (٢٩٥) معناه من حديث ميمونة أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يضطجع معي وأنا حائض، وبيني وبينه ثوب.

....

= ثم قال جل وعلا: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ بـيَّن سبحانه أن التحريم يمتد، حتى إذا طَهُرنَ من الدم وتطهَّرنَ بالماء ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي: حتى ينقطع الدم فيطهرن منه، ومن الخَبَث والأذى، ثم بعد هذا التطهر: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ﴾ فرتَّب المجيء على التَّطهر، ودَلَّ ذلك على أنه لا بُدَّ من التطهر بالماء، وعند فقده أو العجز عنه: التيمم، فإذا تطهرت بالماء أو التيمم عند العجز عن الماء حلَّ له إتيانها وغشيانها بالجماع.

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: من الفرج، لا من الدُّبُر، فالدبر محرم، وإنما تؤتى المرأة من قُبُلها وهو محل الحَرْث، أي: محل الولد، أما الدبر فليس محل الحرث بل محل الأذى ومحل القذر، ولهذا جاء في الحديث: «ملعونٌ من أتي امرأته في دُبرها»[1]، وفي الحديث الآخر: «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأةً في دُبرها»[2]، والمقصود أن الحرث محله الفرج أي: القُبُل: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من جهته القبل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ أي: من الذنوب، =

(١) أخرجه أبو داود: النكاح (٢١٦٢)، وابن ماجه: النكاح (١٩٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي: الرضاع (١١٦٦).

....

= ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أي: من الذنوب كذلك، ويدخل في ذلك أيضاً التَّطهر من الأحداث، فالله سبحانه يُحب المتطهر من المعاصي بالتوبة ومن الأحداث والنجاسات ومما جعله الله طهارة، فالله سبحانه يحب هؤلاء ويحب هؤلاء.

ولما كان التلطخ في المحرمات نجاسة ومن ذلك الوقوع في جماع على الحيض نبَّه سبحانه وتعالى أنه يحب لعباده التطهر من المعاصي بالتوبة، والتطهر أيضاً من الأخباث والأحداث بالطهارة الشرعية.

ثم يقول بعد هذا: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ النساء حرث للأزواج والسَّادة، ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فالقُبُل هو محل الحرث ومحل الجماع ومحل الولادة، وليس الدبر ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: مقبلات ومدبرات، وتوَهّم بعض الناس أن المراد به الدبر، وهذا من أقبح الغلط والجهل، بل المراد: أنى شئتم من جهة الإقبال، أو من جهة الإدبار، أو على جَنْبٍ، فلا بأس بذلك، لكن بشرط أن يكون ذلك في القبل، فالفرج هو محل الحرث، أما =

....

= الدبر فهو نوع من اللواطة، ومنكر ومحرّم، وهو من الكبائر، نسأل الله السلامة.

وفي هذه الآيات من الفوائد أنه ما ينبغي للمؤمن أن يجعل الله عُرْضة ليمينه حتى يمتنع من البر والإحسان والتقوى، بل إذا حلف على يمين ورأى البرَّ والتقوى في غيرها، فالسنة له أن يحنث فيها وأن يكفّر عنها، كما قال النبي ﷺ: «إذا حلفتَ على يمينٍ فرأيت غيرها خيراً منها، فكفِّر عن يمينك وأْتِ الذي هو خير»[1]، وقال ﷺ: «والله لا أحلفُ على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيتُ الذي هو خير وكفَّرتُ عن يميني»[2]. وذلك أن الرسول ﷺ حلف ذاتَ يوم أنه لا يحمل الأشعريين لما جاؤوا يطلبون حُملاناً، ثم جاءه إبل فدعاهم وحملهم، فقالوا له، فقال: «ما أنا حملتُكم، بل الله حملكم، وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفَّرت عن يميني وآتي الذي هو خير»[3]. =

(١) أخرجه البخاري: الأيمان والنذور (٦٦٢٢)، ومسلم: الأيمان (١٦٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: الأيمان والنذور (٦٦٢٣)، ومسلم: الأيمان (١٦٤٩).

(٣) أخرجه البخاري: الأيمان والنذور (٦٧٢١)، ومسلم: الأيمان (١٦٤٩).

....

= وقد يكون هذا الحنث مستحباً، وقد يكون واجباً، فإذا قال: والله لا أصلي في جماعةً، وجب عليه الحنث، أو قال: والله لآتينَّ زوجتي على حيضها أو على نفاسها، وجب عليه الحنث، ولا يأتيها بها فلا يفعل المُحرَّم، فالعاصي إذا كانت يمينه على فعل المحرم وترك الواجب، وجب عليه الحنث والكفارة.

وإذا كانت اليمين على ترْك المستحب أو فعل المكروه، سُنَّ الحنث فيها وشُرِع، ويكفِّر عن يمينه، وإذا كانت على مباح نظر في الأصلح، فيأخذ الأصلح، فيحنث إن رآه الأصلح، مثل: والله لا آكل هذا الطعام، أو والله لا أنام في هذا الفراش، أو ما أشبه ذلك، فينظر الأصلح، ومن هذا قول الشاعر:

قليلُ الأَلايا حافِظٌ ليَمِينِه فإِن سَبَقَت منه الأَلِيَّةُ برَّتِ

فإن من يقلل منها يبرُّ بها في الغالب، بخلاف من أكثر الأيمان فإنه قلّ أن يبر بها بسبب إكثاره منها، فينبغي أولاً التقليل من الأيمان وألا يحلف إلا لحاجة ومصلحة، ثم إذا بدرت منه يمين ورأى الحنث أصلح، بادَرَ بالكفّارة ولم يتساهل. =

....

= وقد بيَّن سبحانه وتعالى أنه لا يؤاخِذُ باللغو في اليمين واللغةِ الدارجة في كلامه من غير قصد، وهذه لا كفارة فيها.

وأما التي يقصِدها بقلبه مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]، إذا قصدها وعَقَدَها بقلبه، فهذه هي التي فيها الكفارة.

ثم يبين سبحانه وتعالى شأن المُولِين، والمُوْلي: هو الذي يحلف أن لا يطأ زوجته أكثرَ من أربعة أشهر، والألية: اليمين فقال سبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧] فإذا آلى أنه لا يطأ زوجته خمسةَ أشهر، أو سنةً، وما أشبه ذلك، يُمْهَلْ أربعة أشهر، فإن فاء ورجع فله ذلك وعليه كفارة اليمين، وإن لم يرجع فلها المطالبة بالطلاق، ولها أن تصبر*.

---

* س: نريد مثالاً عن المسألة الأخيرة (الإيلاء)؟

ج: إذا قال: والله لا أجامعكِ خمسة أشهر أو سنة أو ما أشبه ذلك، فإنه =

....

= يُمهل أربعة أشهر، فإن جامع فعليه كفارة وإلا يطالَب بالجماع إذا طالبت هي، يقال: إما أن تفيء وتطأها، وإما أن تطلّق.

س: الذين يحلفون إذا جاؤوا بالطعام بالطلاق أو يحلفون بالحرام، هل عليهم شيء؟

ج: في هذا الباب اختلاف بين أهل العلم، والصحيح أنها مثل اليمين، كقوله: عليَّ الطلاق لأذبحن هذه الشاة، أو علي الطلاق لأكرمنك، أو لَتأكُلنَّ وليمتك أو كرامتَك، أو عليه الحرام، والصواب أنه من جنس اليمين، فيه كفارة اليمين إذا حنث بأحدهما.

[كيف تحيا الأمم]

۞ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. [٩]

[شرح٩] فهو سبحانه على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، جل وعلا.

ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة في مواضع خمسة عن إحياء الأموات؛ تنبيهاً على ما وعد به سبحانه من إحياء الناس يوم القيامة، ثم جَمْعِهم بين يديه ومُجازاتِهم بأعمالهم، سبحانه وتعالى، فذكر في أول السورة قصة الذين أخذتهم الصاعقة لما طلبوا الرؤية ثم بعثهم الله بعد موتهم، وكذلك قصة القتيل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ =

....

= ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣]، فأحيا الله لهم ذلك القتيل حتى تكلَّم وبيَّن من قتله، وكذلك هذه القصة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾، والرابعة قصة الذي ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وكذا حِماره، والخامسة: قصة إبراهيم مع الطيور، حين طلب إبراهيم من ربه أن يُرِيَه كيف يُحيي الموتى، فأمره الله بالطيور فقطّعها وجعل على كل جبل مُنهنَّ جُزءاً، ثم دعاها فجاءت إليه، وردَّ الله إليها رؤوسها وأرواحها وجمع لها شملها.

هذه خمسة مواضع فيها بيان لإحياء الله الموتى سبحانه وتعالى في هذه الدنيا، فالذي أحياهم في هذه الدنيا هو القادر على إحيائهم يوم القيامة، ومجازاتهم بأعمالهم، سبحانه وتعالى.

وفي هذه القصة بيان أنه سبحانه وتعالى يبتلي عباده لعلهم يشكرون: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أكثر الخلق لا =

....

= يشكرون نِعَم الله ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، فهذا يُنبئ الإنسان على عِظَمِ هذا الخطر، وأن الغالب على بني آدم ـ مع كرم الله سبحانه وتعالى عليهم وإحسانه إليهم ـ عدم الشكر، فيأخذ الإنسان من هذا العِبرة والعِظة، ويُحاسب نفسه ويجاهدها لله، لعله يكون من الشاكرين القليلين.

والشكر ليس بمجرد الكلام، بل يكون بالقلب أيضاً محبةً وتعظيماً للمُنعِم سبحانه وتعالى، وطاعةً وإخلاصاً وتصديقاً له جل وعلا، ويكون باللسان ثناءً عليه سبحانه وتعالى، وطاعة لأوامره، وتركاً لنواهيه القولية، ويكون بالعمل أيضاً بأداء الفرائض، وترك المحارم، والوقوف عند الحدود، فالشاكر يعمل بما شرع الله، قال سبحانه: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣].

كذلك فيه بيان مضاعفته الأجر سبحانه وتعالى للمنفِقين، وأن من أقرض الله قرضاً حسناً فالله جل وعلا يخلف عليه ويعطيه الخير الكثير، ويضاعف له الأجر والثواب، فإن فضله سبحانه وتعالى عظيم، قال بعض أهل العلم: القرض الحسن لا بد أن =

....

= يشمل ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون من كسبٍ طيبٍ.

الثاني: أن يُصرَف عن إخلاص لله، ورغبةٍ فيما عنده جل وعلا، لا رياءً ولا سمعة.

الثالث: أن يكون في جهةٍ صالحةٍ يحبها الله، كمشروعٍ خيري، لا في فساد، فيأخذها من طريقها ويصرفها في طريقها عن إخلاص لله وإيمان به ومحبة له ورغبة في ثوابه ﷻ.

وفي الآيات فوائد كثيرة من أرادها وجدها.

[الحث على الإنفاق]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤-٢٥٧]. [١٠]

[شرح١٠] في هذه الآيات فوائد جمة، وأحكام متعددة، ومن أهم =

....

= ذلك الحثُّ على الإنفاق في وجوه البر والإحسان، ما دام العبد في الحياة؛ فإن هذه الدار هي دار العمل، وهي دار الإحسان، والاجتهاد والسعي، والآخرة دار الجزاء والحساب، والله يأمر عباده بالإنفاق من قبل مجيء الأجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ ولهذا حثّه على الإنفاق في مشاريع الخير، ووجوه البر، وصلة الأرحام، ومواساة الفقير والمسكين واليتيم.

ثم يبين جل وعلا أن الآخرة ليست مثل الدنيا، ففي الدنيا قد ينفعك صاحبك، وقد يشفع لك بحق أو بباطل، أما الآخرة فلا بُدَّ من الحق، فالخُلَّة لغير الله لا تنفع، والشفاعةُ ليست بيد الإنسان، إذ لا بد من إذْنِ الله فيها، ورضاه سبحانه وتعالى، حيث يقول في هذه الآية: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وقال في غيرها: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، أما في الدنيا فقد يشفع الإنسان فيما حرّم الله، وقد يجيب المشفوعَ إليه، وهو لا يرضى؛ خوفاً من الشافع، أو خوفاً من التبعات الأخرى. =

....

= فيبين الله سبحانه وتعالى أن يوم القيامة ليس فيه بيعٌ ولا خُلّة ولا شفاعة، حتى تقول: أُدْرِكُ مطلوبي يومَ القيامةِ بشراء حاجتي، فتأتي يومَ القيامة أفقرَ ما كنت، إلا من عملك الصالح، يُبعث الناس يوم القيامة حُفاةً عراةً غُرْلاً، لا مال، ولا أنساب، ولا غير ذلك، فما هو إلا العمل الصالح؛ الإيمان بالله وتقواه سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١١]، ففي هذا حث وتحريض على إعداد العُدَّة كالمحبة في الله، لأنها تنفع، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فالشفاعة التي تنفع يوم القيامة ما كان عن إذن الله ورضاه سبحانه وتعالى، فيُشفِّع مَنْ يشاء ـ جل وعلا ـ ممن رَضي عن قوله وعمله، في حق أهل التوحيد، وفي حق أهل الكبائر الذين ماتوا على شيء من معاصي الله، كما في الحديث: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»(١)، لكن هذه الشفاعة قد تكون قبل دخول النار، وقد تكون بعد دخولهم النار، وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ: أن هذه =

---

(١) أخرجه الترمذي: صفة القيامة (٢٤٣٥).

....

= الشفاعة تكون أربع مرات: في حق مَنْ دخل النار مِنْ أمته عليه الصلاة والسلام، وهم أهل التوحيد والإسلام الذين ماتوا على شيء من كبائر الذنوب، كالرِّبا والزِّنى والعقوق وقطيعة الرَّحِم وشُرب المُسْكرات وقتل الناس بغير حق وغير ذلك، فيشفع فيهم عليه الصلاة والسلام، فيسجد بين يدي ربه، ويَحمَد ربه بالمحامد، ثم يشفِّعه سبحانه وتعالى في قِسْم، ويحدُّ له حداً، ويخرجهم من النار، ثم قسم آخر، ثم قسم آخر، ثم قسم آخر، ويشفعُ لهم النبيون، والمؤمنون، والأفراط، والملائكة، ثم يبقى في النار جماعة بعد ذلك، لم يدخلوا في شفاعة الشافعين من أهل التوحيد، فيرحمهم الله برحمته سبحانه وتعالى، ويُخرجهم من النار بعدما احترقوا فيها.

فالمقصود أن يوم القيامة يوم عظيم، وأهواله شديدة، وليس فيه معوَّل إلا على رحمة الله وعفوه سبحانه وتعالى، لا على أنساب أو أموال، ولا على قَرَابات أو غير ذلك، فالمعوَّل بعد رحمة الله على ما قدمت من عمل صالح، ونفقة صالحة، أما بغير هذا فلا توجد شفاعة ولا تنفع، قال ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: =

....

= ٤٨] لأنهم كفرة، أي: ليس هناك شفاعة فيهم، لكن لو قُدِّر شفاعة، فما تنفعهم؛ لأنها لا تكون بعد إذن الله ورضاه، ولا يرضى سبحانه الشفاعة إلا في أهل التوحيد ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال أبو هريرة ﷺ: يا رسول الله ﷺ، مَنْ أحقُّ الناس بشفاعتك؟ قال: «مَن قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامة، فهي نائلةٌ ـ إن شاء الله ـ مَنْ مات مِنْ أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[2].

ثم قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يبين سبحانه أن الظلم الأكبر في حق الكفرة، فهم الظالمون، وهذا نوع من الحصر، والمعنى: أنهم الظالمون لا غيرهم، لأن الظلم الأكبر هو الشرك والكفر بالله نعوذ بالله، أما الظالمون الآخرون بالمعاصي كالقتل والرِّبا والتَّعدي على الناس في مالٍ أو في عرضٍ، فهم دون ذلك، =

(١) أخرجه البخاري: العلم (٩٩).

(٢) أخرجه البخاري: الدعوات (٦٣٠٤)، ومسلم: الإيمان (١٩٩).

....

= هؤلاء ظلمة، ولكنهم دون ظلم الكفر، فإن الظلم الأعظم هو ظلم الكفرة، نسأل الله السلامة.

ثم ذكر آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، هذه الآية يقال عنها آية الكرسي؛ لأن فيها ذكر الكرسي، وهي أعظم آية في كتاب الله؛ كما روي عن ابن مسعود[(١)].

فهي آية عظيمة، ينبغي لك أن تحفظها، وأن تُعنى بها، وأن تقولها عند نومك، وفيها الفقه الأكبر، من بيان توحيد الله، وأن المستحق للعبادة هو الله جل وعلا ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ فلا معبود حقاً سواه سبحانه وتعالى، أما ما عبده الناس =

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٠٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٦٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٩١) عن ابن مسعود موقوفاً عليه.

....

= من دون الله من أنبياء أو أولياء أو أشجار أو أحجار أو غير ذلك، فهو معبود بالباطل، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فالذي يعبد النبي ﷺ ويسأله، ويتوجه إليه لقضاء حاجته، أو يعبد البدوي أو الحسين أو عبد القادر أو المرسي أو ابن علوان أو فلان أو فلان أو غير ذلك، فقد عبده بالباطل، وغلط في ذلك، وضلَّ عن سواء السبيل.

أما المعبود بحق فهو الله وحده سبحانه وتعالى، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، وكان الكفار الأولون يشركون في هذا الرخاء، فيدعون بعض الأموات وبعض الأشجار والأحجار ويعكفون عليها؛ كما فعلت قريش وغيرهم من العرب مع اللات والعُزَّى ومناة، ولكنهم يخلصون لله سبحانه وتعالى العبادة في الشدائد والكروب، ويلجؤون إليه وحده كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى =

....

= ﴿ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

أما الكفرة اليوم وقبل اليوم بزمن طويل فشِركهم مع آلهتهم دائماً في الرخاء والشدة، نعوذ بالله، بل في حال الشدة أشد، فإذا اشتدت بهم الأمواج، وخافوا من الغرق في البحار رأيتهم يلهجون إلى آلهتهم من دون الله، فهذا يقول: يا سيدي البدوي، وهذا يقول: يا سيدي الحسين، وهذا يقول: يا سيدي عبد القادر، وهذا يقول: يا سيدي فلان، وهذا يقول: يا رسول الله، وهذا يقول: يا ابن علوان، وهذا يقول: يا عيدروس، وهذا يقول: يا فلان وفلان، وهذا يقول: يا علي، وهذا يقول: يا فاطمة، كل واحد ذهب بإلهه، نسأل الله العافية والسلامة. وهذا الجهل العظيم والشرك الوخيم، والواجب أن يقول: يا الله، اللهم أنقذنا، اللهم عافنا، اللهم سلِّمنا، فالله سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]، فهو القادر في الشدة والرخاء على نجاتك، وعلى هلاكك. =

....

= ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ حي دائم، أما الأموات فما نفعوهم بشيء، فما دافعوا عن أنفسهم، فهو الحي القيوم جل وعلا، وهكذا الأحياء فمدتهم محدودة وقدرتهم محدوده، فلا يصلحون لشيء من العبادة، فهو الحيُّ الدائم والقيوم الدائم، الذي أقام كل شيء، فهو المقيم لهذه السماوات وهذه الأرض ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ أي: لا يعتريه نُعاس وهو السِّنَة، ولا نوم وهو النوم الثَّقيل الذي فوق السِّنَة، بخلاف المخلوق فإنه يموت وينام، فتفوته أشياء، ويجهل أشياء، أما الرب ﷻ فهو حيٌّ قيوم، فلو اعتراه النوم أو السِّنَة لاختلَّ هذا العالم، ولكنه سبحانه حي قيوم ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ فحياته دائمة، لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه سبحانه وتعالى، حياة كاملة، ليست من جنس حياة المخلوقين الذين يعتريهم النوم والنعاس والفتور =

....

= والموت والغفلة؛ لأن ربنا - سبحانه - مُنَزَّهٌ عن الصفات الناقصة، فلا يعتريه نوم ولا نعاس، بل هو حي قيوم دائم الحياة ودائم العلم، ودائم القدرة جل وعلا.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا يدل على أنه مالك السماوات وما فيها، ومالك الأرض وما فيها: كما قال الله ﷻ في آخر سورة المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾ [المائدة: ١٢٠]، مالك السماوات ومالك الأرض، ومالك ما فيهن من الملائكة والجن والإنس وغير ذلك، فهو مالك الكل سبحانه وتعالى.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ الاستفهام معناه الإنكار، أي: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: لا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ كرسيه مخلوق عظيم فوق السماوات وتحت =

....

= العرش، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى، والكرسي وسِع السماوات والأرض، وفوقه ما هو أكبر منه، وهو العرش، وهو سقف المخلوقات، والله تعالى استوى عليه؛ قال ﷻ: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، فالله تعالى في جهة العلو، ترفع الأيدي إليه، وتقول في سجودك: سبحان ربي الله الأعلى.

﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ علو الذات، وعلو القهر والسلطان، وعلو القَدْر والشرف، له أنواع العلو سبحانه وتعالى، وفي هذا الردُّ على الجهمية وأشباهِهِم ممن أنكر علو الله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه العالي فوق جميع خَلقِه، وهو منزه عن اختلاطه بخَلْقِه جل وعلا.

﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ ﴾ لا يشق عليه حفظ مخلوقاته ولا يُثْقِله؛ لأنه سبحانه إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون، فهو الحافظ والمقيم لهذه السماوات والأرض، والمقيم لعباده في هذه الدنيا حتى يأتي أجَلُ القيامة، ولا يشق عليه ذلك ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

ثم يقول جل وعلا: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ =

....

= ﴿ٱلْغَيِّ﴾ فيبين سبحانه وتعالى أنه ليس هناك إكراهٌ في الدين، فقد ظهر الحق، وتبين الرشد، وهو دين الله الذي جاء به محمد ﷺ، وهو الرشد.

والغَيُّ: هو دين أبي جهل وأشباهه، وهو كفرهم والشرك بالله جل وعلا، فقد ظهر هذا، وقد ظهر هذا، واتضح هذا وهذا لأولي الأبصار، فلا إكراه في الدين بعد ظهوره واتضاح أمره.

وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية، فقال قوم: إنها منسوخة بأدلة وجوب قتال الكفار وجهادِهم حتى يدخلوا في دين الله، وقال آخرون: ليست منسوخة، بل يُراد بها أهل الكتاب ونحوهم؛ كالمجوس الذين تُؤخَذ منهم الجزية. ولا منافاةَ، فالإكراه هو مثلما قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: اتضح الحق وبان، فهي إما منسوخة بنزول الآيات الدالة على وجوب قتالهم وطلب الكفار ودعوتهم إلى الحق، فإن أجابوا؛ وإلا قُتلوا.

أو مخصوصةٌ بآيات الجزية، فهي في حَقِّ أهل الجزية فقط، فلا يُكرَهون إذا دفعوا الجزية كاليهود والنصارى والمجوس. وأما =

....

= غيرهم فلا مانع من إكراههم في الدين كقتالهم وجهادهم حتى يدخلوا في دين الله، كما قاتل النبيُّ ﷺ العرب، ولم يقبل منهم شيئاً إلا دخولهم في الإسلام، فقاتلهم حتى دخلوا في دين الله؛ كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، فلم يجعل لهم نهايةً في قتالهم إلا دخولهم في الإسلام، بخلاف اليهود والنصارى والمجوس، فإنهم إذا قدَّموا الجزية والتزموا بالصَّغار قُبلت منهم وكُفَّ عنهم. وقال آخرون من أهل العلم: بل هذا عامٌّ، فكل من بلغ الجزية قُبل منه، كما في حديث بُريدة في «صحيح مسلم»[1]: «فإن أبَوْا فسلهم الجزية» إلى آخر الحديث.

وقد زعم بعض الكُتَّاب أن الإسلام جاء مُدافعاً فقط، لا طالباً، ولا مُبادراً، يقاتل من يقاتله، ويكفُّ عمَّن كف عنه، وهذا =

---

(١) برقم (١٧٣١).

....

= كان في الطور الثاني من أطوار الإسلام، وكان الطور الأول واجباً فيه الجهاد، ثم الطور الثاني أن نقاتل من يقاتلنا، ونكفَّ عمن كف عنا؛ كما قال ﷻ في سورة النساء: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠] وهذه الآية ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾، وانتهى الطور الثالث ـ وهو الأخير ـ أن نقاتلهم دفاعاً وابتداءً حتى يدخلوا في دين الله، إذا كان عندنا قوة؛ كما قال ﷻ: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وكما قال عز وجل: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال النبي ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام»[(١)]، ولم يقل: إلا أن يكفُّوا عنا.

فيُفهم من ذلك أن الشريعة استقرَّت على قتال الكفرة حتى =

(١) أخرجه البخاري: الإيمان (٢٥)، ومسلم: الإيمان (٢٢).

....

= يدخلوا في دين الله ابتداءً ودفاعاً، إلا من أباح الله أَخْذَ الجزية منهم، فهؤلاء إذا بذلوها والتزموا الصَّغار، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم كانوا من المجوس، فنقبلها منهم؛ لقول الله في أهل الكتاب: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وجاء في أهل المجوس أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخذها منهم؛ كما أخذها من اليهود والنصارى.

فالحاصل أن هذه الآية الكريمة إما منسوخة بالطور الأخير من أطوار الجهاد، وأن وقتها كان وقت ضعف المسلمين، فيكف عمن كف عنهم، ويقاتل من قاتلهم، ثم شرع الله قتالهم ابتداءً ودفاعاً حتى يدخلوا في دين الله ﷻ، وهذا هو الصواب، أَنْ يقاتِل المسلمون عند الضعف من قاتلهم، ويكفوا عمن كف عنهم، وعند القوة والقدرة على القتال وإخراج الناس من الظلمات إلى النور يقومون بذلك؛ لأن فيه إحساناً إلى الناس، وإخراجاً لهم من ظُلمة الكفر والشرك إلى نور الإسلام والهدى، وإنقاذاً لهم من أسباب دخول النار إلى أسباب دخول الجنة، فالمسلمون إذا قاتلوهم قد =

....

= أحسنوا فيهم، لأن قتالهم إما أن يكون من أسباب دخولهم في الإسلام، فيكون خيراً لهم في الدنيا والآخرة، وإما أن يعجِّلوهم إلى النار، فيكون خيراً لهم من مزيد الأعمال السيئة، فإن بقاء الكافر في حياته يزيده شراً إلى شره، وعذاباً إلى عذابه، فإذا قُوتِل وعُجِّل مَوتُه صار عذابه أقل، نسأل الله السلامة.

وإذا كان أعداء الله من الكفرة يقاتِلون الدُّول والشُّعوب قتالاً شديداً، ولا يألون جُهداً في ذلك، ولا يَرْقُبون في مؤمن إِلًّا ولا ذِمَّةً، بل يُبيدونهم لأهوائهم ولمصالحهم، وابتزازِ ثَرَوات بلادهم، ولا يرون في هذا بأساً عندهم، فكيف يستنكرون من الإسلام أن يقاتل ابتداءً إذا قوي على ذلك؛ لإنقاذ هذه الأمم من الكفر، ولإدخالها في الإسلام، وإخراجها من الظلمات إلى النور، أليس هذا رحمة؟! أليس هذا إحسانا؟! أليس هذا فعلَ خير بهم؟! لينقلهم من أسباب عذابهم ونكالهم وغضبِ الله عليهم إلى أسباب الرضا والسعادة، فهذا هو الإحسان الواضح.

ولهذا قال بعده سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ =

....

= ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ هذا شأن الإسلام، يُخرجهم من الظلمات إلى النور، فجَمَع الظلمات؛ لأن الكفر أنواع مُنَوَّعة، ووحَّد النور؛ لأنه دين واحد، وصراط مستقيم.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يخرجونهم من نور الحق والهدى، الذي فَطَرَ الله عليه الناس، إلى الظلمات، وهي أنواع الكفر والضلال والشرك والفساد، وَفَرْقٌ بين هذا وهذا لو عَقَلَ الناس، ولكن أهل الهوى والحسد والبغي والظلم لا يعقلون؛ لأنهم يَتَّبعون أهواءهم، فيرمون الإسلام بأنه دين السيف ودين القتال، ودين هذا وذاك، ولا ينظرون في أعمالهم الخبيثة من قتالهم للشعوب وقتالهم الناس، وأخذِهم أموالهم بغير حق، وظلمهم الناس لأهوائهم ومصالحهم، فيعمون عن أعمالهم الخبيثة، وينظرون إلى الإسلام بالعين العوراء الحاسدة الحاقدة، نسأل الله العافية والسلامة*.

---

* س: هل هناك مبررات لترك الجهاد في هذه الأيام؟

ج: لا يوجد مبررات إلا العجز وضعف الإيمان، ولو كان هناك اجتماع =

....

= على الحق وتعاون، فالمسلمون كثيرون، قرابة المليار وربع، لكن أين الاتفاق؟ وأين التعاون؟ وأين معرفة الدين أيضاً؟ فقلَّ مَنْ يعرف الإسلام اليوم، وإن ادعاه، والله المستعان.

س: أتُقبَل الجزية من الكفار غير الكتابيين، كالشُّيوعيين مثلاً؟

ج: لا تُقبل على الصحيح، وتقبل من أهل الكتاب والمجوس فقط؛ لأن الأصل قتالهم، فلا نأخذها إلا ممن جاء الشرع بأخذها منهم صريحاً.

س: وحديث بُريدة ألا يدل على جواز أخذِها منهم؟

ج: احتج به من يراه، لكنْ حملُه على المقيَّد أقرب، وإلا فهو حُجَّةٌ لمن قال بجوازها من الآخرين، وقد يقال ذلك عند الحاجة والعجز.

س: الذين يقولون إن الإسلام لم ينتشر بالسيف، إنما انتشر بأخلاق الصحابة وبكذا وبكذا، فكيف يُفهم هذا؟

ج: انتشاره بالأمرين، فانتشر بأخلاقهم ودعوتهم إلى الله في الأغلب، ولكن السيف مؤيد لهم لمن عاندهم، ففتحوا البلاد بالإيمان والقرآن، وبالسيف لمن عاند، فدخل الناس بعد الفتح، ودخلت الشعوب في الإسلام، بدون قهر لها لما رأت ما فيه من الخير والهدى والصلاح.

س: المجوس ليسوا من أهل الكتاب؟

ج: المشهور أن لهم شبهة كتاب، وتؤخذ منهم الجزية. =

....

= س: هل ورد في النصوص الثابتة تسمية آية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: بالكرسي.

ج: ورد في بعض الروايات عن أبي هريرة في «الصحيحين»[١].

---

(١) انظر البخاري: فضائل القرآن (٥٠١٠).

[عاقبة المرائي]

۞ قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٤]. [١١]

[شرح١١] وهذا من شقائه، ومن غضب الله عليه، ومن تهيئته لأعمال الشر، نسأل الله العافية. =

....

= وفي الآيات أيضاً: الدلالة على أن المُرائي بأعماله التي يعملها ويتكلَّفها ويتعب فيها ثم تضيع عليه، بمثابة من له جَنة برَبْوةٍ، فيها أنواع الخير وأنواع الثمار الطيبة، ثم يُبتلى بإعصار فيه نار يحرقها ـ نعوذ بالله ـ عندما يكون أشدَّ احتياجاً إليها عند كِبَر سِنِّه وضعف ذُرِّيته، وهكذا المُراؤون والمُنافقون يعملون أعمالاً كثيرةً شديدةً متعبة، فقد يعملون ويُجاهدون جِهاداً كبيراً، ويتصدَّقون ويُعطون العطاء الجزيل ويُصلُّون وغير ذلك، ثم تذهب هباءً وتضيع عليهم؛ لأنهم ما أرادوا بها وجه الله سبحانه وتعالى، ولأنها فقدت الإخلاص لله ﷻ.

وقد يقع الإخلاص في بعض الأعمال، ولكنها تفقد الموافقة للشريعة، كما قد يقع لبعض الناس من البدع الكثيرة التي يقومون فيها أثناء الاحتفال بالموالد النبوية أو في التهجد والعمل في ليلة الإسراء والمعراج، أو في غير ذلك أو فيما يتعلق ببناء القبور وتعظيمها والإنفاق الكثير في قِبابها وزخرفتها وغير ذلك، وهي تكون وبالاً عليهم وباطلاً وإثماً وهباءً منثوراً ـ نعوذ بالله ـ لأنها =

....

= ما وافقت الشريعة وصارت بدعة ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

ففي هذه الآيات كلها وما أشبهها الحث على الإخلاص في الأعمال، والصدق فيها، والعناية بها، وأن تكون لله وحده، وأن تكون موافقة للشريعة، وفيها التحذير من إتباع الصدقات والإحسان الـمَنَّ والأذى، وأن الواجب على المؤمن أن يكون في حاله كلها متقيداً بالشريعة لا يخرج عنها لا هاهنا ولا هاهنا؛ لا في صدقاته ولا في سائر أعماله، لا برياء ولا ببدعة ولا بإيذاء للفقراء والمحاويج، ولا بغير هذا مما يخالف شرع الله، وقد قال ﷺ: «ثلاثةٌ لا يكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنَّان الذي لا يعطي شيئاً إلا مَنَّةً، والـمُنفق سلعتَه بالـحَلِف الكاذب، والـمُسْبِلُ إزاره»، رواه مسلم في «الصحيح»(١)*.

* س: الحديث الذي فيه الأمر بإعادة الوضوء لمن أسبل إزاره، ما =

(١) برقم (١٠٦).

....

= درجته؟

ج: ظاهره في «سنن أبي داود»[1] أنه لا بأس بإسناده، فبعدما تأولوا على التحذير والترهيب من الإسبال ينبغي للمؤمن أن يحذر ذلك غاية الحذر، وأن يكون ذلك بصفة خاصة في الصلاة، لأن فيه الأمر بإعادة الوضوء، ولا يزال كلام أهل العلم فيه لا يفهم الناسُ منه الشيء الكثير، ولا بد من إعادة النظر فيه.

س: قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؟

ج: أي: عالم بالله سبحانه وتعالى وشرعه وسُنته.

س: المُتسوِّلون، إذا عرف الإنسان حقيقتهم أنهم غير صادقين وأن سلوكهم غير صحيحة، فإذا آذاهم الإنسان، ما حكم ذلك؟

ج: الظاهر أن هذا منكَر، فإن المنكر لا يُرد بمنكر، وهذا داخل في مسألة الأذى بالصدقة، فهؤلاء فعلوا منكراً؛ فمن سأل الناس أموالاً تكثُّراً فقد سأل الناس جمرة، فإنه لا يستقل ولا يستكثر، فهو مزور كذاب يغش ويدعي أشياء ما لها صحة، فيدعي أنه مَدين وليس بمدين، ويدعي أنه فقير وليس بفقير، فهو صاحب منكر، فوجب الإنكار عليه؛ لأن هذا من =

(١) برقم (٦٣٨).

....

= التزوير والكذب، وصاحب الدعوى الباطلة هو الذي يسأل الناس تكثُّراً وعنده ما يغنيه وليس بحاجة كذلك، قد أتى المنكر، نسأل الله العافية.

[بعض أحكام الإنفاق]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ
ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ
وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ
ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ
ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ
فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠ إِن تُبۡدُواْ
ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ
لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة: ٢٦٧-٢٧١]. [١٢]

[شرح١٢] في هذه الآيات حثٌّ وتحريض على الإنفاق في سبيل الله، وتوجيهٌ للعباد إلى هذا الخير العظيم، وأنه ما يحبه الله ويدعو إليه، =

....

= وأن الشيطان يثبِّط عن ذلك ويدعو إلى تركه.

ويبين سبحانه وتعالى أن الإنفاق في سبيله يعود نفعه على المنفِق، ويحصل له به أجر عظيم وخير كثير، وأنه بذلك يسلَم من الخوف والحزن، فلا خوفٌ على صاحبه ولا حزن عليه، وهذا فضل عظيم للإنفاق في سبيل الله ﷻ. وفيها دلالة على أنه من أسباب الأمن والسعادة يوم القيامة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يأمر سبحانه بالإنفاق من الطيبات لا من الرديء، ويدخل في هذا كتاب الزكاة، ويعلم أن ما أنفقه أهم نفقة في باب الزكوات فهي أهم النفقات وأعظمها، وهي فرض الإسلام، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام الخمسة.

ويدخل في ذلك الإنفاق في وجوه البِر والإحسان في غير الزكاة، وفيه توجيه العباد إلى الإنفاق من الطيبات، فكثير من الناس قد ينفق ولكن لا يتحرى الطيبات بل ينفق من الرديء، ثم إذا دُفع إليه لاستكره ذلك وبنى عليه فوارق ونقصاً، ولامتنع من =

....

= أخذه على سبيل التغاضي والتساهل بذلك وصَبرِ النفس وحَبْسِها على قبوله، وهذا ليس من شأن المؤمن ولا ينبغي له أن يكون هكذا، إن ربه غني حميد سبحانه وتعالى، وهو إنما ينفق لنفسه لا لله، فربنا ليس بحاجة إلى نفقاتك ولكن كما قال جل وعلا: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، و﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦].

ولهذا قال بعدها: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ فمعنى تَيَمَّموا: تقصِدوا، والتَّيمم: القصد، والخبيث: هو الرديء من ـ أي شيء ـ الحبوب والثمار والنقود المزيفة أو ما أشبه ذلك.

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ أي: لستم بآخذي هذا الخبيث إلا على سبيل التغاضي، فإذا كان شيء لا ترضون بأخذه ولا تحبون أكله، فكيف ترضون بتقديمه لله ﷻ، فالله سبحانه إنما أمر لمصلحتكم ولنجاتكم، فجدير بكم أن تنفقوا من الطيبات التي تنفعكم وتُرضي الله سبحانه وتعالى.

ولـهذا نبّه بقوله سبحانه وتعالـى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ =

....

= ﴿حَمِيدٌ﴾ فالله عز وجل ليس بحاجة إلى نفقاتكم، وهو حميد بمعنى المحمود؛ أي: حميد بالأقوال والأعمال، محمود في قوله وعمله، وبكمال إحسانه وعونه جل وعلا، وليس هو بحاجة إليكم، ولكنها مصلحتكم والإحسان إليكم بهذا الإنفاق.

ثم يبين أن الشيطان يثبِّط عن هذا الخير، و﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، هذا الشيطان الخبيث يدعو إلى كل شر، وهو يَعِدُ الناس الفقر، ويقول لهم: إن أنفقتم قَلّت أموالكم، وربما افتقرتم، ويثبطهم عن الإنفاق والإحسان بوعدهم الفقر، وأن هذا الإنفاق كلما زاد فقد تعرضتم للفقر، ويأمرهم بالفحشاء والمنكرات التي حرَّمها الله جل وعلا والتي من بينها البخل. والفحشاء تنطبق على جميع السيئات المحرمة، ولكن هنا خصَّ البخل، وهو من الفحشاء، والشيطان يدعو إليه ويأمر به، فهو يأمر بكل شر ويُثَبِّط عن كل خير أعاذنا الله منه.

والله سبحانه ردَّ عليه ووعد المؤمنين بضد ما قال الشيطان، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ =

....

= يعدكم مغفرة في مقابل الفحشاء، وفضلًا في مقابل الفقر، ويعدكم الزيادة والجود والكرم، كما يقول جل وعلا: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧]، والله يعدنا الفضل والمغفرة على إحساننا وطاعاتنا وإنفاقنا ضد ما وعد الشيطان من الفقر وأمر به من الفحشاء.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ فإنه سبحانه وتعالى واسع الجود واسع العطاء واسع الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده.

ثم قال جل وعلا: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ الحكمة: كلمة عظيمة تُطلق على كل ما يردع عن باطل ويحث على خير، وله من هذا ما جاء في الحديث الصحيح: «إن من الشعر حكمة»[١]، فالشعر يقع فيه أشياء رادعة عن الباطل وعن الشر، مشجعة على الخير، فكل كلمة دعتك =

---

(١) أخرجه البخاري: الأدب (٦١٤٥).

....

= إلى خير وردعتك عن باطل فهي حكمة، ومنها سُميت السُّنة حكمة، وعلمُ الكتاب حكمة، فالحكمة في السنة أنها تدعو إلى الخير وتردع عن الباطل.

ومن هذا حُكم القاضي لأنه يردع الظالم فسُمّي حُكْماً، ومنها حَكَمة الفرس التي في اللجام، سميت حكمة لأنها تردع الفرس وتمنعها من العدو الزائد على رغبة صاحبها. ومن هذا إحكام الآيات وهو إيضاحها وبيان معناها حتى لا يقع هناك اشتباه، فإحكام الآيات وإحكام الكلام يمنع من الاشتباه ويمنع من الافتراء عليه أو تحميله ما لا يحتمل، فكلما كان الكلام أوضح فهو أحكم؛ لأنه يمنع الاشتباه ويمنع التردد في بعض معناه، ويجعل مستمعه على واضح من الأمر.

وأحسن ما جاء في الحكمة التي في الآية: أنها الفقه في الدِّين، فالفقه في الدين يردع عن كل شر ويدعو إلى كل خير، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدِّين»[1]، فمن =

---

(١) أخرجه البخاري: العلم (٧١)، ومسلم: الزكاة (١٠٣٧).

....

= علامات الخير ومن الحكمة العظيمة أن تُفَقَّه في دين الله، وعلى رأس الفقه في دين الله الخشية لله وتعظيم حرماته والعلم بما شرع سبحانه وتعالى، ومَن رُزق الفقه في الدين فقد أوتي الحكمة التي بها يَدَعُ ما لا ينبغي ويأتي ما ينبغي، فبها يدعو إلى الخير وينهى عن الشر، وبها يقف عند حدود الله، وبها يؤدِّي فرائض الله، وبها ينتهي عن محارم الله، ولهذا قال بعد: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

[خطورة الربا]

۞ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا
يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا
ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ
فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟
وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن
تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ
﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ
لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ

إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

[البقرة: ٢٧٥- ٢٨١]. [١٣]

[شرح١٣] لـمَّا ذكر سبحانه وتعالى الآيات التي فيها الحثُّ على الإنفاق والصدقة والإحسان، وذكر ما للمنفِقينَ من الأجر العظيم والمضاعفة لأجورهم بسبب إنفاقهم الأموالَ الطيبة في الجهات الخيرية، وذكر أن النفقة في سبيل الله تُضاعَف إلى سبع مئة ضعف وإلى أضعاف كثيرة، وذكر سبحانه وتعالى الحث على الإنفاق من الطيبات، لا من الرديء أو من الخبيث.

وذكر سبحانه أن الشيطان يَعِدُ بالفقر ويأمر بالفحشاء، ليثبِّط عن الإنفاق، ويخوِّف الناس من الفقر والحاجة، وأما الرب ﷻ فإنه سبحانه يَعِدُ الناس مغفرةً لذنوبهم، وفضلاً منه عليهم بإنفاقهم وإحسانهم، وأن الله جل وعلا يبارك لهم فيما أبقَوا ويُخلِف عليهم، ويضاعف أجورهم.

وبعد أن ذكر قوله سبحانه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: =

....

= ٢٧١]، فالصدقات سواء كانت ظاهرة أو خفيَّة، كلها فيها خيرٌ عظيم، سواء أظهرها وأعلنها لمصلحةٍ في ذلك؛ ليُقتدَى به ويُتأسَّى به في مواساة الفقير والمحتاج عند الحاجة إلى ذلك، أو أخفاها ـ وهو أفضل ـ عند عدم الحاجة للإعلان، فالأصل في الصدقات أن السر فيها أفضل، وإذا دعت الحاجة للإعلان فلا بأس بالإعلان للمصلحة الشرعية.

وبعد أن بيَّن سبحانه فضلَ المنفقين بالليل والنهار وما لهم عنده، ذكر بعد ذلك المرابين وما لهم عند الله من العقوبة؛ فالمرابي أساء إلى الناس وضيَّق عليهم في شؤونهم وفي أموالهم، وابتغى من وراء مُعاملته الأخذَ من أموالهم والزيادة عليهم، فهو مضيِّق عليهم ومُسيء إليهم بالربا، وأما المنفِق فهو مُتصدِّق محسن إليهم ومراعٍ لأحوالهم وموسِّعٌ عليهم. فشتان بين الفريقين؛ فالمنفقون والمتصدقون قد أحسنوا وفرَّجوا ويسَّروا، والمرابون قد ضيقوا وأساؤوا وابتزوا بأخذ الأموال بغير حق، فلهذا جاء الوعيد في حقهم، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا =

....

= يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ففي هذا تحذير من الربا، وأن أكَلَتَه يقومون يوم القيامة من قبورهم مجانين، نعوذ بالله، يتخبطون من مَسِّ الجن لهم، ويُروى عن ابن عباس وجماعة: أن آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخنَق، وهذا من باب إظهار سوء عمله ومن باب الفضيحة له.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ يعني: اعترضوا على الله وقالوا: لماذا حرَّم هذا وأباح هذا؟ إنما البيع مثل الربا؛ فإذا كان الربا حراماً فليكن البيع حراماً، وإن كان البيع حلالاً فليكن الربا حلالاً، أي: ليس هناك فرق، فخفي عليهم الأمر واشتبهت عليهم الحكمة، فلهذا قالوا ما قالوا. وهذا الاعتراض على الله من باب سوء الظن به سبحانه وتعالى، وأنه يَعبثُ بالأحكام، وأنْ ليس =

....

= هناك حكمة في الفرق بين هذا وذاك، ومن اتهم الله في حُكمه وأساء به الظنَّ، فقد ارتكب منكَراً عظيماً وكفراً شنيعاً، نسأل الله العافية.

ثم بين جل وعلا أنه حرّم الربا وأحل البيع لحكمة بالغة؛ فقد أحل البيع لما فيه من المصالح، وحرم الربا لما فيه من المفاسد، وما ذلك إلا لأن الإنسان من طبعه يحتاج إلى ما في يد غيره من طعام أو لباس أو مركوب، إلى غير ذلك، فماذا يفعل؟ إذا أخذه منه بالقوة صار النزاع والفتنة، وربما أفضى إلى قتال ومضاربات، فهذا ظُلمٌ وعدوان، وإن انتظره حتى يعطيه إياه هديةً فقد لا يحصل ذلك، فليس كل أحد يُهدي إليك ما تريد، فماذا تفعل عندئذٍ؟ أتبقى على حالك محتاجاً مضطراً ليس لك حيلة؟ فكان من حكمة الله أن أباح البيع حتى يتيسَّر لك أن تشتري حاجتك من أخيك برضاه، ويتيسرَ له أيضاً أن يشتري منك حاجته بالرضا بالثمن المتفق عليه بينكما، وتُقضى حاجة هذا وتُقضى حاجة ذاك، بدون نزاع ولا خصام ولا عدوان ولا ظلم، فهذا من حكمته سبحانه وتعالى. =

....

= ثم يبين سبحانه وتعالى أن من جاءه موعظةٌ من ربه فانتهى عن الربا وعما حرم الله عليه، فله ما سلف، فالله يغفر له ويعفو عنه فيما سلف، وهذا من فضله جل وعلا أن التائب يُغفر له ما سلف، ومن عاد للربا وما حرم الله عليه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، وهذا وعيد لمن عاد للمعاصي والكبائر بالنار، وهذا يوجب الحَذَر من العَود إلى المعاصي، ويوجب الحثَّ على الاستمرار في التوبة والثبات عليها حتى تلقى ربك ﷻ.

ويبين سبحانه أن الربا ممحوقٌ منزوعُ البركة، صاحبه كشارب ماء البحر لا يزال يطلب المزيد ولا يزال ظمؤه يزيد، فمآله إلى قلة وإلى غضب الله ﷻ، نسأل الله العافية، وأما صاحب الصدقات فيُرْبي الله له صدقاته، ويزيده من فضله سبحانه وتعالى؛ كما في الحديث الصحيح: «من تصدق بعِدْل تمرةٍ من كسب طيِّب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يُربيها لصاحبه كما يُربي أحدكم فَلُوَّه أو فصيله، حتى تكون أعظم من الجبل»[1]، وهذا =

(١) أخرجه البخاري: الزكاة (١٤١٠)، ومسلم: الزكاة (١٠١٤).

....

= من فضله سبحانه وتعالى.

وفي هذا أيضاً بيان أن أهل الإيمانِ والعمل الصالح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة سالمون من هذا البلاء، ولهم عند الله الفضل العظيم، وليس عليهم خوف ولا حزن، فقد اعترض سبحانه بهذه الآية بين آيات الربا؛ ليُبيِّن أن من آمن بالله وعمل الصالحات وأقام الصلاة وآتى الزكاة فإن الله جل وعلا يَأْجُرُه الأجرَ العظيم، ويُنجيه مما وعد به هؤلاء المُرابين.

ويبين سبحانه أن في أداء الزكاة وأداء الصدقات غُنْيَةً عن الربا وعن المحارم، فالذي يؤمن بالله ويعمل الصالحات ويُقيم الصلاة ويُؤتي الزكاة له الأجر العظيم، وهو بعمله ذلك ممن يُزيل أسباب الربا، وممن يعين الفقراء على السلامة من الربا والحاجة إلى الناس.

ثم يبين سبحانه وتعالى ما للمرابي بقوله: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فمن لم يتب من الربا، فليأذن بحرب من الله ورسوله، يعني: فاعلموا بحرب من الله ورسوله.

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا =

....

= تُظْلَمُونَ ﴾ فالتائب يُعطَى رأس ماله، فلا يَظلم ولا يُظلم، فإذا باع مثلاً عشرة بخمسةَ عشَرَ، أو مئةً بمئة وعشرين، أو أقل أو أكثر، ثم تاب الله عليه، فله رأسُ ماله: العشرة أو المئة، والزيادة تسقط، يقول: ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ لا تَظلمون في الزيادة، ولا تُظلمون في رأس المال، فيعطى رأس ماله ويكفيه.

ثم يبين سبحانه وتعالى أنه لا حاجةَ إلى الربا، ولا حاجةَ ليظلم الناسُ من كان معسراً، فالواجب إنظاره ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ فإن أغلب المرابين هم الفقراء، والتجار الذين يُنظرونهم يسيئون إليهم، حتى يضطروهم إلى المعاملة الربوية، فالواجب على التاجر أن يُنظِر ولا يُسيء إلى الفقير، فليُنظِرْه ويُمهِلْه حتى يُوسِّع الله عليه، فيرد الدَّيْنَ الذي عليه، ولا يُلجِئه إلى الرِّبا.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ فإنظار: مصدر معناه الأمر، يعني: فأنظروه إلى ميسرة، وهذا واجب، فلا يجوز حبسُه ولا إيذاؤه ولا ظلمه إذا ثبت عُسره، بل يجب أن يُنظَر، وأما =

....

= المرابون فيقولون: لا نُنظرك، بل لا بد أن تزيد في المال حتى نُمهلك، فإذا كنت معسِراً فاجعل الزيادة في المال حتى نُنظرك شهراً أو شهرين أو سنة، وهكذا، ثم إذا حَلَّ الأجل يزيدون في المال وفي الأجل حتى يتضاعف المال ويكثر.

هذا مرادهم، فرد الله عليهم وأبى عليهم ذلك بأنَّ عليهم الإنظار بدون زيادة، فقد كانوا في الجاهلية يقولون للفقير إذا حل الدين عليه: إما أن تُرْبي وإما أن تقضي؛ يعني: إما أن تزيد في المال حتى نمهلك، وإما أن تقضي لنا حقنا في الحال، وليس عنده قضاء، فيضطر إلى الربا، ثم إذا حل الأجل بعد ذلك قالوا: أعطنا ـ وليس عنده شيء ـ، فيزاد المال، وهكذا، وهذا هو نفس عمل البنوك الآن فيما بلغنا عنهم ـ وإن لم يُظهروا ذلك ـ، فعملهم كعمل الجاهلية: إما أن تربي وإما أن تقضي.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: إذا كان معسراً فالإنظار واجب، ولكن الأفضل من الإنظار الصدقة، وهذه من الوسائل التي تكون النافلة =

....

= فيها أفضل من الواجب، فالإنظار واجب والصدقة مستحبة، وهي أفضل لصاحب الدَّيْن من الإنظار، فالإنظار إمهالٌ له، والصدقة إبراءٌ له من الحق، وذلك أكمل وأفضل.

ثم يُحذِّر الناسَ من يوم القيامة سبحانه وتعالى فيقول: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فهذا تحذير من ربنا للعباد أن يعصُوه ويخالفوا أمره، فيندموا يوم القيامة غاية الندامة، فيوم القيامة يجازى فيه العباد بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فالواجب أن يُتَّقى هذا اليوم وأن يحذَر؛ حتى لا تَقْدَمَ عليه وأنت مُحمَّلٌ بالأوزار، بل ينبغي أن تُعِدَّ العُدَّةَ حتى تَقْدَمَ في هذا اليوم وأنت صاحبُ توبة وعمل صالح، وإياك أن تَقْدَمَ يوم القيامة بأوزارٍ وسيئاتٍ وربا وأعمالٍ قبيحةٍ، تندم يوم القيامة إذا رأيت جَزاءها ورأيتها في كتاب سيئاتك، ولا حول ولا قوة إلا بالله*.

---

* س: آية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ هل الصحيح أنها آخر آية نزلت في القرآن؟

ج: رُوي هذا، ولكن ليس بظاهر، والأقرب أن آخر آية نزلت هي: =

....

= ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]، التي نزلت على النبي بعرفات عليه الصلاة والسلام. [انظر: «فتح الباري» (٨/ ٢٠٥)]

س: كيف نجمع بين قوله ﷻ: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]؟

ج: الخلود خلودان: خلود مؤبد، وخلود إلى وقت معين، فخلود الكفار مؤبد أبد الآباد، نعوذ بالله، وخلود العصاة خلود مؤقت، والعرب تطلق على المدة الطويلة خلوداً، فيقولون: قاموا فأخلدوا، يعني: قاموا طويلاً، وهذا هو المراد في حق أهل المعاصي، كما هنا في المرابين إذا كانوا غير كافرين، وكما في قوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٩٣].

فإذا كان غير مستحل لذلك فهو خلود مؤقت، كما ذكر في أحاديث: «من قتل نفسه بحديدة فهو في نار جهنم خالداً مخلداً فيها»[١]، يعني: إلى أجل، هذا عند أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة والخوارج.

(١) أخرجه البخاري: الطب (٥٧٧٨)، ومسلم: الإيمان (١٠٩).

[أحكام المداينة]

۞ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ

تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢-٢٨٣]. [١٤]

[شرح١٤] هذه آية الدَّين وهي أطول آية في كتاب الله ﷻ، وقد اشتملت على آداب المُدايَنَة والمعامَلة، وما ينبغي أن يعامَل به الشُّهود والكُتَّاب، وهي في الحقيقة منهج عظيم في المُدايَنَة والمُعاملة، فينبغي للمسلم أن يسير عليها وأن يلزمها لما فيها من حفظ الحقوق والعناية بأمر الشهود والكُتّاب الذين بهم تُحفظ الحقوق.

وهي أصلٌ في بيع الأجَل وبيع السَّلَم؛ لأنهما داخلان في إطلاق الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ فإن الدَّيْن يشمل بيع الحاضر إلى أجَل، ويشمل بيع المؤجَّل بثمن مقدَّم وهو السَّلَم، وكلاهما عقدان جائزان ومعاملتان شرعيتان بشروطهما.

ونجد أصله أيضاً جواز المُداينات والبيوع المؤجلة من شخص إلى غيره، إلا ما حرَّمه الشرع من مثل العقود الربوية أو =

....

= العقود التي تشتمل على غَرَر، فالأصل في الإسلام صحة العقود وصحة المداينات ما لم يوجد ما يُبطلها أو يُفسدها من غرر أو رباً، وإنما الأصل كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥] فإن الأصل في المعاملات وفي الوفاء بالعقود: الحِل، كما في سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] فالأصل حِل العقود، وحِل البيع والإجارة والمُساقاة وما أشبه ذلك بين المسلمين.

وهذا يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ ففي هذا بيان حفظ الديون والحقوق بالكتابة، وأنه ينبغي الإملاء الحقيقي المطابق للحق والعدل، من دون زيادة ولا ظلم ولا نقص ولا بَخْس.

وكذلك أن يكون الدَّين إلى أجل مسمَّى؛ حتى لا يقع نزاع أو خصام، وحتى يكون كل منهما على بيِّنة وعلى بصيرة، فإذا كان إلى غير أجل مسمَّى لم يصح؛ إذ لا بد من تأجيل إلى أجل مُسمّى حتى =

....

= يتمكن طالب الحق من المطالبة بحقه، وهكذا قال الرسول ﷺ: «من أسلَفَ فلا يُسلفْ إلا في كيلٍ معلوم ووزنٍ معلوم إلى أجَلٍ معلوم»[1]، فإن الأجل المعلوم يحسم النِّزاع، فإن تقدم به فقد أحسن، وإن تأخر حتى يأتي الأجل فلا حَرَج عليه.

وفيه الكتابة كذلك، وهي من باب حفظ الحقوق، وهو أمرٌ للنَّدْب والإرشاد، والكتابة مستحبة ومشروعة، فإن الله سبحانه وتعالى أمَرَ بها إلا إذا كانت التجارة من المعاملات الحاضرة، فلا حرج في عدم الكتابة؛ لأنها قد تَشقُّ على المتبايعَين، فإذا كانت المُعاملة ناجزة ـ يأخذ ويعطي ـ فلا حاجة للكتابة، بخلاف المُدايَنة فإنها يتأخر فيها المبيع أو يتأخر فيها الثمن، ويُحتاج إلى الكتابة حذراً من النسيان.

وكذلك الإشهاد في البيع مستحب عند أهل العلم لقوله سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ ويدل على عدم الوجوب ما وقع في بعض المعاملات من عدم الإشهاد منه عليه الصلاة والسلام، فالحاصل أن الإشهاد سُنة ومستحبٌّ لحفظ الحقوق، لما =

(١) أخرجه البخاري: السلم (٢٢٤١)، ومسلم: المساقاة (١٦٠٤).

....

= في ذلك من إعانة المُشتري والبائع على حفظ الحق، ولا سيما إذا كانت مُداينة؛ لأنه قد يَنسى، فوجود الكُتّاب والشهود أكمل في حفظ الحقوق.

وفي هذا دِلالة على أن المرأة في الشهادة تَعْدِلُ نصف الرجل، فإذا شهد بالحق امرأتان كان هذا بمثابة شهادة رجل واحد، والأربع بشهادة رجلين، ويبين العلة سبحانه بقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ لَمَّا كان ضبط المرأة أقلَّ من ضبط الرجل في الغالب، احتيج إلى أن تُعزَّز بأختها حتى تكون مُعِينةً لها في وقت الحمل.

وفي هذا أنه ينبغي للشهود أن لا يأبَوا إذا دُعُوا، وأن عليهم أن يساعدوا إخوانهم في حمل الشهادة وفي أدائها، وهكذا الكاتب كذلك، فلا يأبى إذا دعت الحاجة إليه؛ لأن هذا من باب التعاون على حفظ الحقوق، ومن باب النفع للمسلم؛ والنبي ﷺ قال: «واللهُ في عَونِ العبد ما كان العبدُ في عونِ أخيه»[1]. =

---

(١) أخرجه مسلم: الذكر والدعاء (٢٦٩٩).

....

= ويقول أيضاً ﷺ: «مَن كان في حاجةِ أخيه كان الله في حاجتِه»(١)، وهذا من باب التعاون على أمور تنفعُه في الدنيا والآخرة.

وهذا فيه تحذير من المُضارَّة ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ فالواجب على المُتعاملين ألا يُضارُّوا الكاتب وألا يضارُّوا الشاهد، بحبسه والتطويل عليه أو تعطيلِه عن مصالحه، أو دعوته في الوقت الحرَج فيشق عليه، أو ما أشبه ذلك مما فيه ضَرَرٌ على الكاتب والشاهد، بل يُتحرّى في حقهما ما لا يضرهما من الميقات المناسب لهما، والدابة التي تريحُهما ـ السيارة ـ وما أشبه ذلك مما يُعِين على أداء الشهادة والكتابة.

وفيه بيان أن تَعمُّد المُضارة فسوقٌ لمن فعل ذلك ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ يعني: هي معصية بكم، فالحاصل أن الواجب على المسلم ألا يُضارَّ أخاه الكاتب ولا الشاهد، بل يتحرى ما ينفعه وما لا يشق عليه ويسهل؛ حتى يحصل التعاون والمساعدة على حفظ الحقوق. =

(١) أخرجه البخاري: المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم: البر والصلة (٢٥٨٠).

....

= ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ وهذا فيه الأمر بالتقوى، وأن المتقي لله ﷻ حريٌّ بأن يُعلِّمه الله ويوفقه ويعينه، فالتعليم مِنَّةٌ من الله عز وعلا، وعليك يا عبدَ الله أن تتقيَ ربك وهو يعلمك سبحانه وتعالى، وليس معنى ذلك أن تتقيَ الله وتترك التَّعلم، فالتعلم من التقوى، فمن اتقى الله يتعلم، والتعليم له أسبابه فأنت تأخذ بها. وهكذا بقية الأمور التي أنت مأمور بها من طلب الرزق الحلال، ومن الزواج، وصِلة الرحم وغير ذلك، فأنت مأمور فيها بالأخذ بالأسباب، وأن تتقي الله في ذلك كله، ومِن تقوى الله: بِرُّ الوالدين وصلة الرحم والكسب المباح وطلب العلم وغير ذلك، والله جل وعلا هو مسبب الأسباب، وهو المعين على كل شيء سبحانه وتعالى، وإنما عليك أن تتعاطى الأسباب وأن تأخذ بها.

وأنت أيضاً في أخذك بالأسباب تكون في رحمة الله وإحسانه، فبدون رحمته وإحسانه لما قَدَرْتَ على شيء، ولما أخذت بسبب، ولما قويت على شيء، ولكن انظر؛ هو المُعلِّم والمُعِين سبحانه وتعالى، وهو المُسهل، فعليك أنت أن تسارع إلى ما ينفعك، وأن تبادر إليه، =

....

= وأن تستعين بالله سبحانه وتعالى، وفي الحديث الصحيح: «احرِص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجِز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا لم يصبني كذا، ولكن قل: قدَّر اللهُ وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»(1). فالمؤمن يحرص على ما ينفعه في الدنيا والآخرة ويستعين بالله سبحانه وتعالى، والله معينُه، فمن اتقى الله سبحانه يسر له أموره ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤] ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٩] والفرقان: هو العلم، ومن اتقى الله يسَّر له أموره، وفرَّج كُرُباته، وأعطاه العلم النافع.

ومن أسباب العلم النافع: أن تكون مُتقياً لله، وأن تتعلم وتُسارع إلى حلقات العلم، وأن تُنقِّب عما أشْكِل عليك، وأن تسأل عما خفي عليك، فكل هذا من الطرق المُرشدة إلى تعليم الله لك سبحانه وتعالى، وهو حصول الفرقان، وقد يغلط بعض الناس =

---

(١) أخرجه مسلم: القدر (٢٦٦٤).

....

= ويظن أن ما وعد الله به من الخير والهدى والصلاح والعلم وتفريج الكروب وأشباه ذلك لا يحتاج إلى أسباب، وإنما يحصل بمجرد الوعد من دون الأخذ بالأسباب من العبد، وهذا غلط، فقد يحصل ذلك عند الشدائد وعندما يعجز العبد عن الأسباب، وعند ضيق الأمور عليه، لكنه مأمور بالأسباب، وعليه أن يتخذ فعل الأسباب التي يستطيعها.

وقد لا تنفع الأسباب، وقد تُعطَّل وقد يُحال بينه وبينها، فعند هذا يجيء فرج الله وتيسيره ويأتي مددُه سبحانه وتعالى، فكم من مضايَقٍ عاجِزٍ عن الأسباب يأتيه المدد من الله سبحانه وتعالى، لكن مع القدرة والاستطاعة على الأسباب فالواجب ألا يتأخر عن ذلك، وأن يكون عاملاً بالأسباب آخذاً بها، فالجنة لها أسباب، والنار لها أسباب، والرزق له أسباب، وقضاء الدَّين له أسباب، وطلب العلم له أسباب، وهكذا، ومع ذلك فعلى المسلم أن لا يعتمد على الأسباب وحدها، بل يأخذ بها ويستعين بالله عليها سبحانه وتعالى. =

....

= ومن ذلك الرهن، فالرهن لا بأس به؛ لأنه يقوم مقامَ الإشهاد، ومقام الكتابة عند عجز الإنسان عن الكتابة والإشهاد، فيستفيد من الرهن؛ لأن فيه حفظَ الحق، وإذا جمع بين ذلك؛ فكتب وأشهد وأخذ رهناً، فكل هذا نوع من الاحتياط، فلا بأس. والواجب على المُرتَهِن أن يؤدي الأمانة التي اؤتمن عليها؛ فإن الرهن أمانة عنده، فليتق الله في ذلك، وأن يعتني بالأمانة ولا يخونها حتى تؤدَّى، فصاحب الحق قد يؤدي الحق كاملاً فيسترد رهنه، وقد يعجز عن الرهن فيباع هذا الرهن، فالمرتهن أمين فليؤدِّ الأمانة وليحذر أن يخونها أو يُضيِّعها.

وكذلك الشهادةُ أمانة، فليتّقِ الله في أدائها، فلا يكتمها وأخوه بحاجة إليها، ولا يزد فيها ولا ينقص، بل يحفظها ويصونها ويستعين على ذلك بالكتابة، وليتذكرها دائماً حتى تؤدَّى كما تحمّلها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ نسأل الله العافية*.

---

* س: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، هل =

....

= يعني هذا أن الله يعلم المتقين الأحكام التي وردت في الآية فقط؟

ج: هذا قيد ليس له لزوم، فالمعنى: الأحكامَ وغيرها، لكن الأحكام الموجودة من باب أولى، ولكن من اتقى الله علّمه الله أحكام الدين عامةً، والأهم أحكام العقيدة الصحيحة.

س: تقدم تقديمُ المثمَّن وتأخير الثمن، هذا معروف بين الناس، ولكن تقديم القيمة وتأخير المثمَّن، كيف يكون؟

ج: هذا يسمى بيع السَّلَم، كأن أقول: يا زيد أنا أشتري من ذمتك مئةَ صاع من بُرٍّ بمئة ريال، وتؤدي لي هذا العيش في رمضان أو في شعبان أو في رجب، فهذا يسمى بيع السَّلم، وقد قدِم النبي ﷺ المدينة وهم يُسلفون في التمر السنة والسنتين والثلاثة، فقال رسول الله ﷺ: «من أسلفَ في تمرٍ فليُسلف في كيلٍ معلوم ووزن معلوم إلى أجَلٍ معلوم»(١). فالسَّلَم: تعجيل الثمن وتأخير المثمن أو المبيع، وعكسه بيع الأجل، وهو تسليم المبيع وتأجيل الثمن.

---

(١) أخرجه البخاري: السلم (٢٢٤١)، ومسلم: المساقاة (١٦٠٤).

[إحاطة علم الله وتمام ملكه وقدرته]

۞ قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤-٢٨٥]. [١٥]

[شرح١٥] هذه الآيات الكريمات توجهُ العباد إلى الإيمان بأن ربهم سبحانه وتعالى هو المالك لكل شيء، وهو على كل شيء قديرٌ، وأنه يعلم ما في الضمائر، ويعلم ما تنطوي عليه القلوب، فلا تخفى عليه خافيةٌ جل وعلا، وهو مالك السماوات ومالك الأرض، والمالك لما فيهما، كما قال سبحانه في سورة المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: ١٢٠]. =

....

= ولـمّا نزلت آية البقرة هذه شَقّ ذلك على أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وجاؤوا إليه وقالوا: يا رسول الله، حُمِّلنا من التكاليف ومن الشرائع ما نستطيع، ونزلت هذه الآية ولا نستطيعها، أو كما قالوا رضي الله عنهم وأرضاهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟! قولوا: سمعنا وأطعنا» فقالوها[1].

فلما قالها القوم نزل على إثرها قوله سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

فلما نزلت هذه الآية أنزل الله على إثرها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية، فرفع الله عنهم ما خافوا وخشوا، وهو أن يحاسَبوا بما في القلوب وما يخطر من الأشياء في الصدور؛ لأنه قال: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ =

---

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (١٢٥).

....

= ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، وقد خافوا من هذا لأن الإنسان يخطر له خواطر ويكون في نفسه أشياء، ولكنه لا يُصِرُّ عليها ولا ينفِّذها، بل تخطر وتزول، فرفع الله عن المسلمين هذا الشيء بهذه الآيات، ولهذا في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان(١) أن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدَّثت به أنفُسَها ما لم تعمل أو تكلم»، وهذا من رحمته سبحانه وتعالى وإحسانه، وفي الحديث الآخر يسأل بعض الصحابة النبي ﷺ: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»(٢) يعني: أن وساوس الشيطان قد تَرِدُ على الإنسان حتى يقع في نفسه وفي قلبه أشياء يتعاظم من أن ينطق بها لقُبحها، فالشيطان حريص على أن يوقع الناس في الوساوس الخبيثة والأفكار الباطلة، فإذا عالجها بذكرِ الله واستغفارِه والتبتل إليه والتعوذ بالله من الشيطان زالت وارتفعت.

ولهذا في حديث آخر يقول عليه السلام: «يأتي الشيطان =

---

(١) البخاري: الطلاق (٥٢٦٩)، ومسلم: الإيمان (١٢٧).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (١٣٢).

....

= أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته»(١). وفي رواية: «فليقل: آمنت بالله»(٢). فالشيطان لا يزال بابن آدم يُلقي عليه الوساوس والأفكار الرديئة، فإن كان عنده نور وإيمان وهدى دافع هذه الوساوس بالتعوذ بالله، والإيمانِ بالله ورسله، والعلمِ بأنها من الشيطان، فيرتفع ذلك عنه ويزول، وإن كان الإنسان ليس عنده علم ولا بصيرة استرسل مع هذه الأفكار السيئة، حتى تكون عظيمة فتستقرَّ في نفسه، والعياذ بالله.

وفي هذا بيان أن الواجب على العباد عند الشرائع وعند نزول الآيات أن يتقبَّلوها بالإيمان والتصديق وبصدر رحب، ولا يكفروا بها ولا ينفِروا منها، ولا يقولوا: لا نؤمن بها ولا نستطيعها، بل يجب قبولها والإيمان بها، ثم سؤال الله التيسيرَ والتسهيلَ فيما إذا كان هناك شيء من الشدة، والله المعين سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ =

(١) أخرجه البخاري: بدء الخلق (٣٢٧٦)، ومسلم: الإيمان (١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (١٣٤).

....

= ﴿يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وفي هاتين الآيتين ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ وما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه»(١)، وهما: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ إلى آخر السورة، أي: كفَتاه من كل سوء، وكفاه الله من الشيطان، وقيل: كفَتاه عن قيام الليل، ولكن الصواب هو المعنى الأول، أي: أنها تكفيه وتكون له حرزاً من الشيطان، وكفاية له من كل سوء.

وأما قيام الليل فهو على حاله وشرعيته وسُنيته، فقد كان النبي ﷺ يقوم من الليل ويتهجد، وكان يقول هاتين الآيتين عليه الصلاة والسلام.

وفي هاتين الآيتين الدلالة على أن الواجب على العباد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، كما في حديث جبرائيل لما سأل =

---

(١) أخرجه البخاري: فضائل القرآن (٥٠٥١)، ومسلم: صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٨).

....

= النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيرِه وشرِّه»[١]، وجاء ذكر هذه الأصول في الآية: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]، فهذه الأصول الستة عليها مبنى الإسلام ومبنى الإيمان في القلوب.

وأما الأركان الخمسة الظاهرة فهي العَمَد الظاهرة للإسلام، وهي: الشهادتان، والصلوات الخمس، والزكاة، والصوم، والحج، وللإسلام أيضاً عَمَدٌ وأصول باطنة تكون بالقلوب، ولا بد منها، ولا يستغنى عنها بالأعمال الظاهرة، وهي أصول الإيمان الستة. فمن جمع بينهما فهو مسلم حقاً، ومن أدى الأركان الخمسة الظاهرة ولكنه لم يفِ بالأصول الباطنة فهو منافق، فالذي يقول بلسانه ويعمل ظاهراً ما ليس في قلبه لا يكون مؤمناً مسلِّماً بها، إلا إذا جمع بين الأمرين، وأدى الأعمال الظاهرة، وآمن بالأصول الباطنة، وصار إيمانُه يصدق ما أظهره من إسلامه ودينه، ويصدقه ما أبطن، =

---

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (٨).

....

= فهو جامع بين الظاهر والباطن، أي: بين الأصول الظاهرة والأصول الباطنة.

فهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، عن إيمان صادق، وعن تصديق بأن الله معبود بحق، وأنه رب العالمين، ويشهد بالرسول عن إيمان وعن تصديق أنه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وهكذا إقامته الصلاة، وإيتاؤه الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت، إلى غير ذلك مما يأتي به عن إيمان بأن هذا من شرع الله، وأن الله أمر بهذا، فلا يأتي به رياءً كالمنافقين، بل يأتي به عن إيمان وعن تصديق وعن علم أن هذا من شرع الله وأنه مما أمر الله به.

وفيه أيضاً من الفوائد أن الله جل وعلا لا يكلف العبادَ إلا ما في وُسْعهم، وطاقاتهم وأن الله جل وعلا قد أجاب هذه الأمة في إعفائها من تكليفها بما فيه آصارٌ وأغلالٌ مما جرى على الماضين، ولهذا جاء في «الصحيح»: أن الله سبحانه وتعالى لما أنزل قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾. قال: قد فعلت، إلى آخر الآيات، في كل =

....

= دعوة يقول: قد فعلتُ[1]، فأجاب الله هذه الدعوة ورفع عن المسلمين الحرج والآصار التي أصيب بها مَن قبلهم من بني إسرائيل وغيرهم في تكليفهم بأمور ثقيلة وعظيمة بسبب أعمال ارتكبوها وسيئات اقترفوها، كما قال ﷻ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١] فهم ابتُلوا بسبب أعمالهم السيئة وإقدامِهم على محارم الله جل وعلا، فشُدِّد عليهم، ومن ذلك أنهم أُمِروا أن يقتلوا أنفسهم في توبتهم، وهذا من الآصار العظيمة.

ومن رحمة الله جل وعلا بهذه الأمة أن اكتفى منها سبحانه بالندم على الماضي، والإقلاع عن الذنوب، والعزم الصادق على ألا يعود إليها، وعدم الإصرار، وردِّ المظالم إلى أهلها، وجعلها توبة كافية لـمحو السيئات بغير حاجة إلى أن يقتلوا أنفسهم، فهذا من =

---

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (١٢٦).

....

= رحمة الله تعالى ومن تيسيره جل وعلا.

فالمقصود من هذا كله بيان أن الواجب على العباد السمع والطاعة في كل شيء، والإذعانُ لأمر الله ورسوله، وألا يخالفوا أمر الله بالعصيان، وألا يتأسَّوا بالماضين من الأمم المخالفة العاصية التي احتالت على الأنبياء وعصت، بل يجب على الأمة ـ التي هي خير الأمم ورسولها خير الرسل ـ أن يقابلوا أوامر الله بالصبر والانشراح وطيب النفس والامتثال، وأن يصدِّقوا أخباره سبحانه وتعالى، وأن ينقادوا لأمره، وأن يقفوا عند حدوده، وأن يعلموا أن في ذلك الخير العظيم والعاقبة الحميدة، هذا الذي وعد الله به مَن صَبَرَ واستقام واتقى، فالله ﷻ يقبل توبته، وييسر له أمره، ويعينه على أداء الحق، ويزيل ما في قلبه مما قد يضره من وساوس وأفكار تضره رحمة منه وإحساناً سبحانه وتعالى.

﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ دلالة على أن المصير والمرجع إلى الله، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، والدار داران: إما الجنة وهي دار المتقين المحسنين الصابرين، وإما النار =

....

= وهي دار الكافرين العاصين المخالفين المتابعين للهوى، نسأل الله السلامة! فالواجب على العباد استشعار ذلك، فالمصير إلى الله جل وعلا، وسيجازيهم بأعمالهم، فإذا علمت أن المصير إلى الله، وأنك مجازى بعملك، فالواجب عليك أن تُعِدَّ العدة، وأن تكون على أُهْبة صالحة إذا صرت إلى الله، فتلقى الخير العظيم، والإحسان والعاقبة الحميدة*.

*** س: ما صحة حديث «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[(1)]؟**

ج: في صحته نظر، وقد حَكَم عليه بعضُ الحفاظ بأنه غير ثابت، لكن له شواهد؛ فالخطأ أو النسيان شاهده الآية الكريمة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقد قال الله: قد فعلتُ[(2)].

وأما ما استُكرهوا عليه، فمعروف أن الإكراه يرفع الحرج ويرفع الحُكم، كما في قوله سبحانه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٠٦].

فالحديث له شواهد من جهة المعنى، أما سنده فهو ضعيف عند أهل =

---

(١) أخرجه ابن ماجه: الطلاق (٢٠٤٣).

(٢)أخرجه مسلم: الإيمان (١٢٥).

....

= العلم، قال أبو حاتم: لا يثبت. وقال آخرون: لا بأس به. فالحاصل أنه حديث ضعيف عند أهل العلم، ولكن حديث «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تكلم»(١).

س: بمناسبة ذكر كلمة التقليد الأعمى، إذا قلنا بمنع التقليد، فهل نحكم على المقلد الأعمى بالخطأ أم بالضلال أم بالكفر؟

ج: هذا فيه تفاوت وتفصيل، فابن القيم رحمه الله بسط هذا المقام وأوضحه في كتاب «إعلام الموقعين»، وتقدم أن التقليد ثلاثة أقسام: قسم واجب، وقسم محل اجتهاد ونظر، وقسم منكَر محرَّم لا يجوز أبداً لأنه قد يوقع في الكفر والضلال.

القسم الأول: للعامة، فالواجب على العامة الذين لا يعرفون الأحكام أن يسألوا أهل العلم، ويقلدوهم في ذلك، ويجتهدون في تحري الأعلم فالأعلم والأورع فالأورع، حسب طاقتهم، وليس يسعهم إلا هذا، قال تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فليس عليهم إلا أن يسألوا أهل العلم عن الحق والشرع، وعلى أهل العلم أن يبينوا لهم شرع الله، وعليهم أن يصدقوا وأن ينقادوا لهذا البيان؛ إذ ليس في طاقتهم التقعيد والعلم بآيات الله وأدلته. =

(١) أخرجه البخاري: العتق (٢٥٢٨)، ومسلم: الإيمان (١٢٧) عن أبي هريرة ﷺ.

....

= **القسم الثاني:** للمجتهد، والمجتهد يعلم الأحكام، ولكن قد تأتي حادثة يضيق الوقت عن استيفاء الأدلة فيها، فيقلد من يغلب على ظنه أنه أعلم بالأحكام وأقرب إلى الشرع في هذه المسألة التي نزلت به.

القسم الثالث: المجتهد طالب العلم المتبصر، الذي لا ضيق عليه، وفي إمكانه النظر، فالواجب عليه النظر، ولا يجوز له التقليد في ذلك، لا في العقائد ولا في الأحكام.

س: ما الشروط التي تشترط للمجتهد، فهل يجب أن يكون عالماً باللغة...إلخ؟

ج: على حسب طاقته، حتى يكون عالماً بالأدوات التي تمكنه من معرفة الأدلة، أما توسعه فيها فليس بشرط، فالمهم أن تكون عنده بصيرة تمكنه من معرفة الأدلة الشرعية، من جهة اللغة ومن جهة القواعد الشرعية التي قررها العلماء في أصول الفقه وفي مصطلح الحديث.

فليس المراد أن يكون كاملاً أو يغلب عليه ذلك، وإنما المقصود أن تكون عنده بصيرة تمكنه من معرفة الدليل ومعرفة ما يعارضه، حتى يرده أو يسلم له.

س: هل يعني هذا أن من شروط المجتهد أن يكون عالماً باللغة أو بأصول الفقه أو....إلخ؟ =

....

= ج: لا يشترط أن يكون عالماً بكل شيء، ولكن يكفي أن يكون عنده معلوماتٍ تُعينه على الاجتهاد، فعبارات الإطلاق ليست على إطلاقها، فالمراد أن يكون عنده معلومات تكفيه.

س: هل العامِّي يسأل عن الدليل كما في قول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]؟

ج: يسأل عن الشرع، وإلا فهو لا يعرف الدليل ـ الآية أو الحديث ـ فيسأل: يا فلان، أخبرني بما شرع الله في هذا الشيء، أو ما يجب علي في هذا الشيء؟ وعلى المسؤول أن يتقي الله فيه، وأن يتحرى الحق؛ لأن هذا العامِّي لا يعرف الدليل.